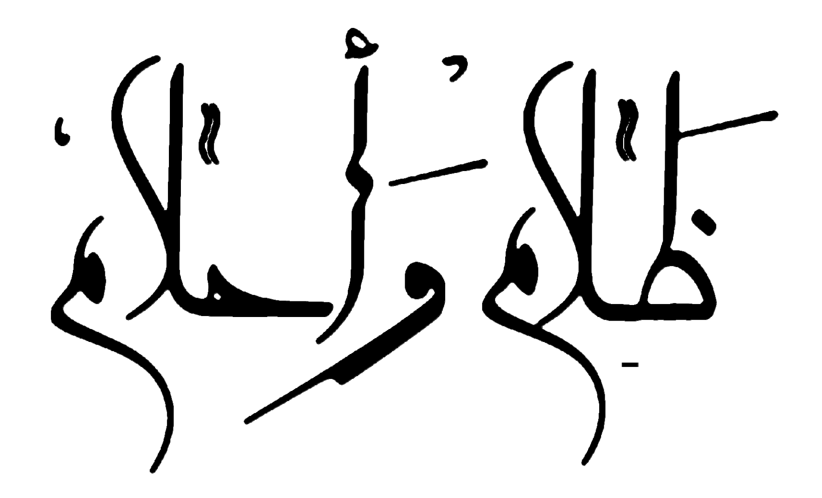


مجموعة قصصية

عصام أبو فرحة



إهداء

إلى جامعتي المعطاءة ,, جامعة القدس المفتوحة,,

إلى (الجلمة) قريتي الصغيرة الوادعة وأهلها الطيبين ,,

إلى حماة حرف الضاد أينما وُجدوا ,,

إلى قارئي العزيز ,,

أهدي جهدي المتواضع هذا.

عِصام



شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى جامعة القدس المفتوحة, التي رعت طباعة ونشر هذا الكتاب,, ممثلة برئيسها الأستاذ الدكتور يونس عمرو حفظه الله,,

وإلى الدكتور عماد نزال مدير فرع الجامعة في جنين, والدكتور حسن السلوادي عميد دائرة البحث العلمي والدراسات العليا, وإلى أسرة الجامعة.

والشكر كل الشكر للسيد محمود خزيمية الذي قام بتنسيق الطباعة, وإلى أخي عاصم أبو فرحة الذي قام مشكوراً بالتدقيق اللغوي.

وشكري وامتناني لكلٍ من الشابين: الفنان محمد أبو صلاح الذي أهداني رسم الغلاف, والمبدع محمد زيود مصمم الغلاف.

وأخيراً أتقدم بالشكر ممزوجاً بالاعتذار إلى أولئك الذين أسترق من أوقاتي المخصصة لهم وقتاً للقراءة والكتابة,, زوجتي وأولادي.

عِصام





عرفان إذا ضاق الزمان

بحركاتٍ أثقلتها المحن ونال منها الزمن كانت الحافلة تشق طريقها المتعرج الممتلئ بشتى أشكال المعيقات من حفريات ومنعطفات ومطبات، طريق طويل يشق صحراء قاحلة موحشة جرداء، عواء بنات آوى يزيد ليلها وحشة، والرياح الجافة المحملة بالرمال تزيد نهارها جفافاً وحرقة، كان عرفان يجلس خلف عجلة القيادة يدير دفة الحافلة بيدين ربطتهما بالمقود سنوات طويلة قضاها في مجال الحافلات وقيادتها, يرقب الطريق وتعرجاته ومفاجآته ببقايا عيون عكّر الترحالُ صفاءَ لونها, وأذبل جفونَها السهر.

جمعت الحافلة في داخلها مسافرين ينشدون وجهةً واحدة وإن اختلفت آراؤهم وأمزجتهم وطباعهم فمنهم من جلس مسلّماً أمره لله أولاً ومن ثم لعرفان. ومنهم من يتململ في جلسته لا يعجبه العجب, يلعن أي شيء ويخالف كل شيء, ومنهم من يرى أن قيادة الحافلة من حقه, ومنهم من لا يكترث لما يحدث.



ذات ليلة التفتت العيون وأطرقت الأسماع لأصوات تتعالى من هنا وهناك محذرة من دخول الحافلة في طريق غير صحيح سيودي بالجميع إلى التهلكة لا محالة، ملقية باللائمة على عرفان الذي قال لهم سنصل بعد ثلاثة أيام أو أربعة، وها هم لا يزالون في دوامة الطريق ما يربو على أسبوع كامل، تَعالتْ الأصوات: هذا (العرفان) اللعين سيلقينا في التهلكة، متآمر حقود، انكشف أمرك يا ابن (......)، ترك الجميع أماكنهم متجهين إلى مقدمة الحافلة مطالبين عرفان بالتوقف، تحت وابل من اللكمات والصفعات والشتائم واللعنات توقفت الحافلة، نزل عرفان مثخناً بجراحه تطارده الأكف وتركله الأقدام، حيث تم تقييده وزجه في صندوق الأمتعة.

وسط الجموع المترقبة للمجهول والباحثة عن طوق نجاة قام (الأستاذ فهمان) خطيباً، يُحدّث عن التغيير وعن طرقٍ من الإسفلت الحريري ستسلكها الحافلة تحت قيادته، فهو من كان يجلس طوال الرحلة خلف عرفان، فعرف دهاليز الطرقات وكيفية الخروج من المتاهات.



ذلـك الحـديث وتلـك الشـعارات لم تـرق لسـمعان، فقـام مقاطعاً: ويحك يا هذا، أتريد السير بنا على درب عرفان؟؟ أنا، وأنا فقط من يستحق تلك القيادة، فقد جلست طوال رحلتي في وسط الركـاب، شـاركتهم همـومهم وأحـزانهم؛ وعرفـت آمـالهم وتطلعـاتهم، أنـا (وأعـوذ بـالله مـن كلمـة أنـا) أحـق بالقيـادة، وقـد بايعني الكثيرون، انقسـم المسـافرون وتفـرق الشـمل وتباينـت الآراء بين داعم لفهمان ومناصر لسمعان، وكـادت رياح الفرقـة تعصـفُ بهـم وبمصيرهـم، بيـد أن فكـرة تَقـدَّمَ بهـا عجـوز حكـيم حسـمت الخلاف وهدأت النفـوس، فركـاب الحافلـة هـم أصحاب الحق في تسليم زمام أمورهم لمن يرونه مناسباً، وفي عجالة مـن الأمـر وخوفـاً من نفاذ الطعـام والشـراب تقـرر إجـراء الانتخابـات بشـكل فـوري، حيث كـان الأستاذ فهمان والسيد سمعان المرشحين الوحيدين.

فهمـان يحشـد الأنصـار، ويطلـق الوعـود بـأن الوصـول بـات قاب قوسين أو أدنى، أما سمعان فيعد برحلة مريحة آمنـة لا خـوف فيها ولا تعب.

وجاءت ساعة الحسم حيث تم اختيار فهمـان لتولى المهـام، وتم اختيار سمعان نائباً ومساعداً، قضـى الجميـع ليلـتهم تلـك حـول



الحافلة المتوقفة مبتهجين فرحين, حلقات الدبكة والأهازيج تملأ المكان متحدية وحشة الصحراء وظلام الليل, عاش الجميع ليلةً مفعمةً بالأفراح حتى أدركهم الصباح.

صعد الرُّكّاب إلى الحافلة وجلس كلٌ في مكانه مستعدين للانطلاق من جديد في رحلتهم المتوقفة منذ أيام, ومن روح المسؤولية وتحمل الأمانة بقي فهمان ومساعده سمعان في الخارج حتى اطمئنا على الركاب وتفقدا الحافلة ثم صعدا وسط تصفيق حاد وهتافات هزت أرجاء المكان.

بصعوبة بالغة وبعشرات من حركات الانحناء والتواضع استطاع فهمان إيقاف صخب الترحيب وحفاوة الاستقبال, حيث قال: أشكركم على ثقتكم الغالية, وأعانني الله على حمل تلك الأمانة التي وضعتموها في عنقي, كما أشكر نائبي (سمعان) على تقبله نتيجة اختياركم وموافقته على إعانتي ومساندتي للوصول بكم إلى مقصدكم بأمن وسلام, إخواني من باب المسؤولية وبكل شجاعة أقول أمامكم أنني لا أعرف شيئاً عن قيادة الحافلات, لذلك أدعو نائبي للجلوس خلف المقود, وسأكون أنا إلى جانبه موجهاً ومرشداً ودليلاً.



علت موجة التصفيق والهتاف من جديد, وقام سمعان أمام الجماهير منحنياً مبتسماً, وقال: أشكركم على ثقتكم يا أحبائي, وأثمن ثقة القائد, أستاذي وأستاذنا جميعاً فهمان, والذي ضرب لنا مثلاً في الشجاعة والصدق والشفافية, أما أنا يا أخوتي فلا علم لي بالحافلات ولا أستطيع حتى تشغيلها أو إشعال أنوارها, ولا داعي للقلق فهذا عرفان سنخرجه من الخزانة ونفك أسره لنستعين به في قيادة الحافلة, وسأكون أنا وقائدي الأستاذ فهمان إلى جانبه, وبكل ما لدينا من مهارات وخبرات سنوجهه وسنجعله يسلك بحافلتنا طريق السلامة والنجاة.

نزل أحد الركاب من الحافلة وفتح الخزانة ليحرر عرفان, ولكنه سرعان ما عاد مفزوعاً وقال: يا إخوان،,, لقد اختفى عرفاااااااان.



هل أنا متشائم؟

في معرض حديثي معه عن النكبة وذكراها وتداعياتها ضحك صاحبي معلم اللغة العربية وقال لي: في يوم 1998/5/15 كنا نحيي الذكرى الخمسين للنكبة, وأذكر أنني في ذلك اليوم طلبت من تلاميذي أن يكتبوا موضوع إنشاء بعنوان (توقعاتي لمثل هذا اليوم بعد عشر سنوات).

وأكمل المعلم حديثه لي قائلاً: كتب الطلاب وخاضوا بالموضوع بطرق مختلفة, بعضهم قال سنحتفل يومها بتحرير فلسطين كل فلسطين, وقال آخر ستكون هذه الذكرى وقتذاك نسياً منسياً ، فحتماً ستكون دولتنا قائمة إلى جانب دولتهم, فلا داعي وقتها لإحياء ذكريات تثير الأحقاد, بينما قال البعض: حينها ستكون أجساد اليهود فضلات خلف أسماك البحر, وسنكون في بلادنا وقرانا المهجرة, فَلِمَ نُحيي ذكرى أليمة وقد باتت من زمنٍ مضى؟



وأذكــر أن طالبــاً قــال في موضــوعه بمــا معنــاه: ربمــا تعرضنا في عشر السنين القادمة لنكبة جديدة ستنسينا نكبتنا الأولى.

تخـيّلات خـاض التلاميـذ فيهـا وبتفاصـيل توقعـاتهم لهـا, ولكـن مـا لفـت نظـري وأوقفـني طـويلاً كـان موضـوعاً لأحـد الطلاب, وقد كان الموضوع جملة واحدة وحيدة مفادها كالتالي:

(بعد عشر سنوات وفي مثل هذا اليوم سنحيي الذكرى الستين للنكبة).

ضحكت حين قرأ على مسمعي ما كتبه الطالب, وقلت للمعلم: هل قلت يومها أن طالبك متشائم أم قلت أنه يمتلك بعد نظر؟

قال: نهرته حينها ونهيته عن تشاؤمه.

قلت: ولما قمنا بإحياء الذكرى الستين للنكبة, هل خطر الأمر ببالك؟



قال: نعم, وقلت ربما كان ذاك الطالب يمتلك بعد نظر, لكنه كان متشائماً أيضاً.

قلت: واليوم ونحن نحيي الذكرى الرابعة والستين للنكبة, ماذا ستكتب لو طلبت منك موضوعاً يحمل ذات العنوان؟

قال: لا أدري, وماذا ستكتب أنت لو طلبت منك ذلك؟

قلت: سأسرق موضوع تلميذك، مع بعض الإضافة، حيث سأكتب: بعد عشر سنوات, وفي مثل هذا اليوم سنحيي الذكرى الرابعة والسبعين للنكبة, إن لم نبدأ منذ اليوم بتغيير ما في أنفسنا,,,, فهل أنا متشائم، أم هل لدي بعد نظر؟؟

أما صاحبي فقد سكت عن الكلام ولم يجبني.



رجل واحد, امرأة واحدة

لا أدري, هل كانت محض صدفة؟ أم أن القدر قد فرض أن يتواجد ذلك الرجل على مقربة من عنبر النساء في تلك اللحظات؟

لا ... لا أظنها صدفة، ففي تلك اللحظات أيضاً كانت امرأة تدخل عنبر الرجال تسأل حاجة لها هناك، تلك اللحظات حيث هاج البحر وتلاطمت أمواجه في كل الاتجاهات، حتى غدت السفينة أشبه بكرةٍ اسفنجية تتقاذفها أيادي طفلٍ قوي البنية عديم الحكمة، حينها ظن الجميع أنها النهاية لا محالة، فهناك لا صراخ يجدي ولا استغاثات تنجي.

انقسمت السفينة إلى قسمين ابتعد كل منهما عن الآخر، وكل منهما غاب باتجاه، وبعد حين استقر كل نصفٍ منهما على جزيرة من الجزر المتناثرة في البحر.

كتب الله النجاة للجميع، وفرح الجميع فرحاً لم ينقصه استقرار الناجين على هاتين الجزيرتين النائيتين الخاليتين، فهما



- وعلى أية حال - أفضل مستقراً من بطون أسماك قرشٍ جائعةٍ متلهفةٍ لوجبة دسمة من اللحم البشري الطازج.

جميع النساء استقر بهن نصف السفينة المنكوبة على أرض تلك الجزيرة، ومعهن وصل الرجل الوحيد الذي كان على مقربة من عنبرهن قبل هبوب العاصفة، جزيرة تبعد كثيراً عن تلك الجزيرة التي استقبلت الناجين من الرجال ومعهم تلك المرأة الوحيدة.

بعد شهرٍ واحدٍ من الحادثة كانت حياة الناجين قد استقرت على الجزيرتين، حيث كان الطعام وفيراً وسبل الحياة موجودة، حينها ابتدأ كلٌ من الفريقين المتباعدين بعمليات التنظيم والتخطيط للمستقبل، والبحث في سبل البناء والتطوير.

جزيرة النساء انتهت من ترتيباتها، وكل الأمور بدت على ما يرام، أمرٌ واحدٌ فقط كان يشغلهن، ماذا يفعلن بهذا الرجل الوحيد المتواجد بينهن وعلى جزيرتهن؟

ثار الكثير من الجدل حول هذا الكائن المختلف عن الجميع، وبرزت الكثير من التباينات في الآراء والاقتراحات،



وظهـرت أيضـاً بعـض الخطـوط العريضـة والـتي اتفقـن عليهـا جمـيعهن، إذ أن هـذا المخلـوق - المختلـف عـن سـائر سـكان الجزيـرة - لا بـد لـه مـن وضـعٍ مختلـف، فهـو يمتلـك القـوة الجسدية، ويمتلك الذكورة، وله من المؤهلات ما سيمكنه من أخذ شأنٍ مختلف، ولم تنكر أية واحدة منهن أن وجوده بينهن يحمل الكثير من المخاطر، فقوته وقدرته كرجلٍ وإمكانياته المتفوقة قد تؤهله للسيادة عليهن، وربما لاستعبادهن، حينها سيصبحن ألعوبة بيده، وسيعيش على عرقهن، يستبيح من تحلو له منهن، ويخسف الأرض بكل من لم ترق له منهن، ورغم اتفاقهن على ضرورة العمل واتخاذ التدابير اللازمة لدرء هذا الخطر القائم، إلا أنهن لم يتفقن على آليات التنفيذ بعد، واستمر العمل لإيجاد الحلول المناسبة.

في تلك الأثناء أيضاً كانت جزيرة الرجال تنعم بالاستقرار، بعد أن تمت السيطرة على كل العراقيل ومعوِّقات الحياة، وكانت كل الدلائل تبشر بوجود مقومات حياة لا بأس بها على تراب تلك الجزيرة، وما بقي أي أمرٍ دون حسم إلا أمر تلك المرأة الوحيدة، وقد أجمع جميعهم دون استثناء على أن



وجودها بينهم ينذر بالخطر، فهي الأنثى الوحيدة بين جموعٍ من ذكورٍ لا يجدون أي متنفسٍ لغرائزهم الجامحة، وهي الجميلة الفاتنة الوحيدة، والتي ستصبح حتماً مطمعاً للجميع، وربما ظفر بها الأقوى، أو الأعز، أو الأكثر نفرا، حينها ستتحول الجزيرة إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، فالطعام وفيرٌ لا يحتاج إلى منازعة، والمال مفقودٌ لا وجود له ليكون مصدر مشاحنة، إنما هي تلك المرأة بندرتها وسحرها وضعفها واستكانتها، هي فقط من ستشكل بؤرة النزاع والشقاق، فلا بد من العمل لإيجاد الحلول المناسبة.

قبل انقضاء الشهر الثاني من الحادثة كانت بشائر الخير تظلّل على جزيرة النساء، خيرات وفيرة، حياة هادئة، أمن واستقرار انقطع نظيرهما، فلقد وجدن حلاً لمعضلة وجود الرجل، فجعلنه عبداً يأتمر بأمر الجميع، يسير بساقين تربط بينهما سلسلة حديدية لا تسمح له بمباعدتهما إلا بمقدار خطوته، يحمل الأثقال وينقل مياه الشرب ويجلب الأسماك، وقد غطيت عيناه بقطعتين من الجلد لا يرى من خلالهما إلا موطأ قدمه، يعمل من الصباح حتى المساء امتثالاً لأوامر يتلقاها من الجميع، كما



واستقام الحال أيضاً على جزيرة الرجال، فوجود المرأة الوحيدة بينهم قد لقي الحل الأمثل، فلا يستطيع أي طامعٍ أن يقترب منها أو أن يدوس حماها، فلقد انقلب ضعفها إلى قوة، وتحولت استكانتها إلى نفوذ، وما عادت تجذب أنظار الطامعين إلا في منامهم وأحلامهم، فمن ذلك الذي يجرؤ على الاقتراب من ملكة تم تتويجها بموافقة الجميع؟ ويمتثل لأمرها الجميع؟؟



صفات مكتسبة

في العاشرة من عمري اقتلعوا كل أسناني وتقاسموها فيما بينهم، وذلك لما وجدوا فيها من حدةٍ وصلابة، وركبوا لي أسنانا لينةً طريةً بالكاد تمضغ ما يقدمونه لي من فتات.

في السادسة عشرة من عمري، فعلوا بجهازي التناسلي ما فعلوا.

في العشرين من عمري استلوا أنسجتي العضلية وقدموها لفتيانهم، وذلك لما وجدوا فيها من قوةٍ وشدة، وزرعوا لي عضلاتٍ تالفةٍ مستهلكة، بالكاد تحمل جسدي،

في الأربعين من عمري، اقتحموا جمجمتي وسرقوا عقلي، وقالوا على مسمعي: سنكون قادرين على استعماله أكثر منك، وارتحلوا به بعد أن تم حشو جمجمتي بعقلٍ صدئ بالكاد يرشدني إلى طريق بيتي، ومن الممكن - إن اعتصرته جيداً - أن يعي بعض توافه الأمور.



بعد ذلك سمعت ضحكاتهم تتعالى وصاروا يتحدثون بنشوة المنتصر: لم يبق له شيء، وليس هو من يهمنا فقط، بل أننا ضمنّا سلامة نسله من بعده، فحتماً سيكون نسلاً جائعاً مخصياً ضعيفاً أحمقَ، وهذا ما نريد.

سمعتهم ولم أنبس بكلمة، وكان عزائي الوحيد تلك النظرية الوحيدة التي ما زلت أذكرها من كتبي المدرسية، وخفت أن أبوح بها فيبطلوا صحتها، تلك النظرية التي تقول: (إن الصفات المكتسبة لا تورث).

أرجو منكم أن لا تبوحوا بسري، كي لا يقوموا بتغيير بعض جيناتي، فيرث نسلي القادم كل صفاتي.



أين أبي؟

عندما مات والدي في عيادة الطبيب لم أدرك أنه قد مات, فها هو أمامي بكل ملامحه, أنظر إليه بعينّي فأراه, أتحسسه بيدي فأحس به, أقبله فأشعر ببرودة جسده, وأحس بطعم الملوحة في حبات العرق المتجمعة فوق جبينه, أحتضنه فيغمرني حضنه بدفئه المعهود, كيف يقولون أنه قد مات؟ رأيته مرات عديدة بوضع كهذا ، حينها كانت أمي تقول لي: اخفض صوتك فهو نائم، لكن في هذه المرة لم أسمع أحداً يقول لي اخفض صوتك، حينها اعتقدت أن الموت نومٌ لا يزعج صاحبه علو الأصوات.

صرخت مع الصارخين وبكيت مع الباكين، كنت أبكي ولا أدرك السبب، فقبل اليوم كانت سعادتي في أن أراه وليست في أن يراني، وأنا الآن أراه فَلِمَ البكاء؟ كنت أستشعر الأمن والطمأنينة عند إحساسي بوجوده معي في ذات المكان، وهاهو موجود أمامي، فلم انقباض صدري وشعوري بالضياع؟ حينها عدت وقلت: الموت إذن نومٌ نشعر بالحزن على صاحبه، لكن ما سبب حزننا عليه؟



أسئلة داهمتني وما عرفت إجاباتها إلا عند إنزال جسده إلى قبره، وعندما بدأ الحضور يتسابقون لإهالة التراب فوقه، أدركت حينها أني بكيت في عيادة الطبيب لأني عرفت أنه سيموت بعد ساعات، فهذه هي لحظة الموت الحقيقية، لحظة اختفائه تحت تلك الكتلة الترابية الضخمة، نعم، الآن لم أعد قادراً على رؤيته ولا على لمسه، هنا برزت لي حقيقة جديدة عن الموت فقلت: الموت نومٌ لا نستطيع أن نرى صاحبه أو نلمسه، ولن نستطيع أبداً.

في اليوم التالي، أذكر أني نهضت من نومي باكراً وقبل أن أنام، نهضت يشدني الشوق لرؤيته، جلت ببصري في أرجاء البيت فلم أجده، نظرت إلى مخدعه حيث كان ينام فلم أرَ إلا سريراً فارغاً يعتصره الحزن مثلي، ينظر إلي يذكرني أنه ما عاد مرقده هنا، يقول لي: إنه هناك حيث دفنتموه.

قلت حينها: نعم إنه هناك تحت التراب، فما الموت إلا ذلك النوم الأبدي هناك تحت التراب.

قبل شروق الشمس كنت هناك أقف فوق القبر، وصلت هناك ولا أدري كيف وصلت، كنت أحث الخطى ظناً مني أنني



ذاهب إليه، كنت تواقاً للقائه، كنت أشعر أنني سأجده بانتظاري، سيحتضنني، سيسألني عن أمي وعن أخوتي وعن الأحبة، وصلت هناك ولم أجده، لم أره، لم أكلمه ولم أسمعه يكلمني، لم أجد هناك إلا كومة من التراب، أيعقل أن يتحول أبي إلى كومة من التراب؟ كيف استطاعت بعض الحجارة وبعض التراب إخفاء ذلك المارد؟ بضعٌ وسبعون سنة من العمل والبذل والعطاء والبناء، أيعقل أن تنتهي خلال لحظات؟

نظرت إلى كومة التراب، جلست قربها، نظرت إليها بتمعن وسألتها:

هل أنت حقاً أبي؟؟

سمعت صوتاً لم أعرف مصدره، ولم أدرك هل خرج من داخل نفسي أم من كومة التراب، كان الصوت يصيح بي ويقول:

ما الذي جاء بك إلى هنا؟

أتبحث عن أبيك في كومة تراب؟ ارجع يا هذا وابحث عن ضالتك في مكانٍ آخر، ولا تنس أن تنظر إلى ملامح وجهك وإلى



عروق يديك، إلى صفاتك وخصالك، وامعن التأمل باسمك الذي تحمله، حينها ستجد من تبحث عنه.

عرفت من ذلك اليوم أين يوجد أبي وأين يسكن، وعرفت مغزى كلمات المواساة التي كنت أسمعها من المعزين حين كانوا يقولون (اللّي خلّف ما مات)، ومنذ ذلك الحين لم أعد لزيارة كومة التراب.



فأر طويل العمر

عندما وقع نظر سعفان على الفخ معلقاً على واجهة محل الخردة في السوق القديم قال بصوت لفت أنظار الجميع: وجدتها, وجدتها, وظل يرددها حتى ظن البعض أن (أرخميدس) قد بُعث من جديد.

لم يكترث سعفان بنظرات الناظرين، واتجه نحو الدكان يسأل صاحبها عن الفخ المعروض في الخارج, وقد بدت على ملامحه علامات السعادة والارتياح عندما قال: هل يصلح هذا الفخ لاصطياد فأر سمين فاسد مفسد؟

- بكل تأكيد يا صاحبي، فهذا الفخ مصمم لمثل تلك المهام الصعبة.

- وكم ثمنه؟ وكيف يعمل؟ وكم يأخذ من الوقت؟ وما هي مخاطره؟

- على رسلك، تمهل يا رجل، سأوضح لك كل شيء، تناول الرجل الفخ وأكمل حديثه شارحاً عن آليات العمل:



ما عليك يا أخي إلا أن تباعد بين هذين الفكين، ومن ثم تثبت انفراجهما بهذا العمود الحديدي، بعد أن تعلق قطعةً من الجبن على آخره، واترك الفخ في منطقة آمنة تتيح للفأر الخروج بأمان، حيث ستشده رائحة الجبن الشهية، وسيكون بانتظار خلو المنطقة من المخاطر، حينها سيأتي لقضم قطعة الجبن، وما أن يلامس العمود الحديدي حتى ينطلق الفكان من مكانهما ليطبقا عليه بإحكام. وفي الصباح إما ستجده نافقاً أو ما زال يلفظ أنفاسه الأخيرة.

اشترى سعفان الفخ وسار إلى بيته بنشوة لا ينغصها إلا تفكيره بثمن قطعة الجبن التي اشتراها مكرهاً، حيث قال مصبراً نفسه:

آه لو أن الفخ يعمل دون قطع الجبن هذه، لكن لا ضير، فتلك القطعة ستقضي على هذا الفاسد الذي أرق مضجعي منذ شهور، لا أنكر أن ثمنها مرتفع، لكنها ستحمي بيتي وقمحي وفراخي وملابسي من عبث هذا الوضيع.

بعد أسبوع من الكمائن الفاشلة كان سعفان يمسك الفخ ويصيح بعلو صوته: هذا البائع الغشاش، أظنه متآمراً مع



هذا الفأر اللعين، فكيف للفأر أن يلتقط قطعة الجبن عن العمود دون أن يطبق عليه الفخ؟ بل كيف له أن يلعق آثار الجبن عن العمود بارتياح وطمأنينة؟ أم أن هذا العمود تالفٌ لا يعمل؟

أحس سعفان ببارقة أمل عندما داعبته فكرة تلف عمود الفخ، فسارع إلى إحضار قطعة جبن جديدة ووضعها في مكانها أعلى العمود، وقام بنصب الفخ، ومد يده بحركة خفيفة ليلمس قطعة الجبن وليرصد مكان العطل، حينها، ومن اللمسة الأولى أطبق الفخ على يده فصاح بألم وحيرة: يا إلهي، هاهو يعمل، فلقد أحسست بأن يدي انتزعت من مكانها بعد أن ازرورقت أصابعها في لحظات، كيف يستطيع هذا اللئيم التحايل على الفخ؟ خمسة قوالب من الجبن أكلها وأنا عاجز عن فعل شيء، يا ويلي ويا حسرتي، فهل أحضرت الفخ للقضاء عليه أم لتسمينه؟

على صراخه الذي جلجل المكان هرعت زوجته مفزوعة وقالت:

- ما بك يا رجل؟ هل جننت؟ هل تكلم نفسك؟



- ساعديني فأنا حقاً على حافة الجنون، قالها لاطماً وجهه بكلتا يديه.

- هوّن عليك يا رجل، فهل ستقتل نفسك لأجل فأر؟ الأمر بسيط جداً، ولو أنك فكرت بحكمة لما كان هذا حالك، أنت تضع جبناً طرياً رخيص الثمن، يلعقه الفأر بلسانه دون أن يهتز العمود، يجب عليك إحضار قالب جبن صلب، أعرف أن ثمنه مرتفع لكونه مستورداً، لكنه الحل الوحيد، وإن أردت اجتثاث فساد هذا الفأر فيتوجب عليك زيادة تكاليف حملتك.

- أوكلت أمري إلى الله، سأحضر الجبن الصلب المستورد مرتفع الثمن، لكني كنت آمل أن أصطاده بالجبن المحلي الرخيص، فأنا عازم على اجتثاث الفئران من كل البلد بعد أن أنتهي من أمر هذا اللعين، ولكن إن كان ثمن هذا الجبن باهظاً، فكم سأحتاج لتطهير البلد من فئرانها؟

ابتسمت زوجته وقالت بسرها: والله لن تكفيك أجبان الدنيا، قالتها وقد أخفت عنه أصابع يدها التي تغير لون بعضها إلى اللون الأزرق.



لا تكن مثلنا

قال الفتى لوالده العجوز: أظننا اقتربنا من وجهتنا يا أبي، إنها خلف هذه التلة، أليس كذلك؟

قال الوالد العجوز لابنه الفتى، نعم هي كذلك، لكننا لم نقترب، سنحتاج إلى مسيرة يوم كامل، ذلك لأن الطريق تلتف حول هذه التلة المترامية الأطراف.

قال الفتى لوالده العجوز: ولم الالتفاف يا أبتِ؟ أليس بإمكاننا اختراق التلة في طريق مستقيمة؟ فإنها لا تبدو وعرة.

تابع الفتى حديثه مستدركاً: لا .. لا .. فلا دلائل تشير إلى أن أحداً قد سلك تلك الطريق قبلنا، فلا أثر لإنسان أو لدابة، فلم المجازفة؟

ابتسم الوالد العجوز وقال لابنه الفتى: ما بك تراجعت يا بني؟ إن كان كلامي عن السير في الطريق المعتادة قد أقعدك فلا تأخذ به، فأنا قد قلت ما علمني إياه والدي حين كان يقول لي (عليك بالطريق وإن دارت فإن من شقها أعلم مني ومنك)،



وأظنه قد أخذ المقولة عن جدي فأصبحت إرثاً نخاف أن نحيد عنه، حتى أقعدنا ذلك الإرث وبقينا ندور في فلك من قبلنا ولم نأت بجديد، يا ولدي خذ هذه الكلمات مني:

كن مبادراً، ولا تخف من السير في طريقٍ لم يسلكها أحدٌ قبلك، واعلم أن أعظم الاكتشافات كانت من أناسٍ مثلي ومثلك، لكنهم قد سلكوا طرقاً لم تكن من قبلهم تُسلك.

تابع الوالد العجوز حديثه لابنه الفتى: يا ولدي هذا ما علمتني إياه الحياة، ولكن بعد فوات الأوان، فما عدت أتحمل مشاق التجارب، وما عاد بالعمر ما يكفي لانتزاع النجاح من الفشل، أنا سأدور مع دوران الطريق، أما أنت فاسلك طريقك التي قلت عنها، وليكن الحذر دليلك والصبر زادك، واحرص على التوكل بعد التعقل، سر على بركة الله يا ولدي فأني أراك ستكتشف ما لم يكشفه أحدٌ قبلك، وهناك سيكون الملتقى.

بعد مسيرة يوم وليلة وصل الوالد العجوز إلى وجهته، وصل ليجد ابنه الفتى هناك بانتظاره فاحتضنه بشوق ولهفة وقال:

متى وصلت؟ وكيف كانت رحلتك؟



قال الفتى لوالده العجوز: وصلت بعد مسيرة بضع ساعات فقط، فكما توقعت لم تكن التلة وعرة، وجدت بعض المعوقات فطوَّعتها، ولقيت بعض الصعوبات فذللتها، فاختصرت طول المسافة وشقة السفر، لكني لم أكتشف ما كنت تظنني سأكتشف.

ابتسم الوالد العجوز وقال لابنه الفتى: بل إنك قد اكتشفت الكثير يا ولدي، فابق مبادراً فإنك حتماً ستكتشف الأكثر، ألا يكفي اليوم أنك قد اكتشفت طريقاً أقصر؟؟؟

تمتم الفتى بكلماتٍ لم يظنها قد وصلت إلى مسامع والده العجوز حيث قال:

والدي سار على طريق قال إن جده قد شقها، فلم ساروا عليها دونما تفكير؟ ولم شقها جد جدي بعيدة كل هذا البعد؟ آه، أظنه كان قد وقع في غرام فاتنة تسكن خلف التلة، فشق طريقاً تمر إلى جانب بيتها، فسلكها الأبناء من بعده دون معرفةٍ أو سؤالٍ أو بحثٍ عن بدائل.



اتسعت ابتسامة الوالد العجوز وقال لابنه الفتى، أنا أسمعك أيها الشقي، تأدب وترحم على جدودك، ولا تكثر من الكلام.



لن أُدفن هنا

رأيت الصورة يا أبي، وها هي اكتملت أمامي، كم سمعتك تحدثني عنها وتصفها لي، لكني لم أتخيلها بتلك البشاعة، كم هي دميمة وقاتمة، أراها كما حدثتني عنها تماماً، رُسمت باللونين الأحمر والأسود، لون الحقد ولون الدم، وقد حملت توقيع ذلك الرسام الحاقد الذي رسم الصورة التي سكنت مخيلتك منذ عقود, لقد كنت بارعاً في الوصف، وكم كنت أظن بأنني استطعت رسم الصورة كما هي مرسومة في مخيلتك، اليوم فقط عرفت أن الخيال - ومهما كان خصباً - يظل عاجزاً عن محاكاة الحقيقة، اليوم فقط استطعت أن أرى الصورة، كنت أحس بالحزن يملأ عينيك وأنت تحدثني، وبالقهر الخارج مع زفراتك، وبعمق الجرح النازف في داخلك، وطعم العلقم الذي يغص به حلقك, كل ذلك كان يشعرني بأنني أدركت ما تريدنا إدراكه، كنت أحدث نفسي فأقول: ما به يُعيد ما قاله؟ ما به يُسمعنا وصفه للصورة صباح مساء؟ اليوم أدركت السبب فعذرتك، فكأنك كنت مدركاً لعجزنا وعجز خيالنا عن فهم ما تقول.



كان يقف بين الجموع يتمتم بتلك الكلمات، ولا يصل صوته إلى أحد، والكل ينظر صوبه، الكل يصرخ ويبكي ويرثي، وقد التف حوله جمع غفير، بعضهم يُسمعه كلمات مواساة، وبعضهم يربت على كتفه أو يمسح على رأسه، وبعضهم يحاول الوقوف في مرمى بصره لحجب تلك الصورة عن ناظريه، أما هو فبدا متماسكاً أكثر من الجميع رغم أن المصاب الأول مصابه.

ففي ذلك اليوم، وقد انسحب الجيش من مخيم جنين بعد اجتياح عام 2002، كان رامز قد عاد إلى المخيم مع بعض المقاومين الذين تمركزوا على التخوم، عاد منهكاً من أيام سهرٍ طويلة، مثخناً ببعض جراحٍ من شظايا أصابته، دامي العينين حزناً على فراق رفاقٍ له، استشهد بعضهم والبعض ظل مجهول المصير.

عاد إلى المخيم ليقف في هذا المكان، ولتستقبله الأحضان في محاولات مواساة وتهدئة، يسمع كلماتٍ تخرج من هنا وهناك ولا ينظر إلى قائليها وكأنه لا يعيها أو لا يكترث بها:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.



- لم يبق منهم أحد.
- لم ينجُ أحد منهم إلا هو.
- هدموا المنزل فوق رؤوس ساكنيه.
- ها هي جثة أخرى متفحمة.
- اخفضوا أصواتكم رحمةً بهذا المسكين.
- أبعدوه عن المكان، لن يحتمل هذه المشاهد.

كل محاولات إبعاده عن المكان لم تجد نفعاً، فقد كان يصدها بهدوء، ويظل واقفاً في مكانه يتمتم بكلماتٍ غير مسموعة، حتى ظن الجميع أن الموقف قد أفقده صوابه، نعم لا بد أن هول الموقف قد أفقده الصواب، فمن ذا الذي يستطيع تحمل هذا؟ كل أهله تحت ركام بيتٍ تظافر الجميع على تشييده بدل الخيمة، تلك يد والده مبتورة، وما كان ليعرف صاحب اليد لولا السبحة التي ما زالت الكف مطبقة عليها، تلك ظفيرة لا يدري إلى أي الأختين تعود، تلك جثة أمه التي تحتضن جثة رضيعها حتى التصقتا فصارتا جثة واحدة، هذا حطام دراجة



أخيه التي اشتراها له عندما استلم مرتبه الأول، خرجت الدراجة من تحت الأنقاض دون صاحبها الذي ربما التصقت أشلاؤه بحطام البيت بينما كان يحاول حمايتها.

العيون كل العيون تحدق في رامز، الذي بدت عيناه كجمرات تتبخر العبرات فيهما قبل نزولها على وجنتيه، بدا منتصباً شامخاً، يتمتم بنفس الكلمات:

رأيت الصورة يا أبي، وها هي اكتملت أمامي، ذات الصورة التي طالما وصفتها لنا، مصبوغة باللونين الأسود والأحمر، تحمل توقيع من رسمها أمامك في (صفد)، ما زال منذ عام 1948 يرسم بحقده الأسود لوحاتٍ من دمائنا، آه آه يا صفد، أتذكرين تلك الصورة؟ عندما وقف أبي فوق ركام بيته هناك، ينظر إلى جثث أمه وأبيه وأخوته تُنتشل من تحت الأنقاض؟ هل تذكرين أبي يا صفد؟ هل تذكرين كيف كان يقف وقفتي هذه؟ أتذكرين كيف سلمه الله يومها ليظل شاهداً ينقل لنا الأحداث ويصف لنا الصور؟

انتفض رامز وكأنه عاد من مكانٍ غير مكانه وزمانٍ غير زمانه، رفع رأسه بشموخٍ أكبر، شق الجموع عائداً إلى



الخلف، غادر المكان يردد بعض العبارات وبصوت مسموعٍ في هذه المرة، لم يعِ أحد ما قاله، وظنوا أنه يهذي جراء الصدمة، فخلوا سبيله وقالوا: لنتركه وشأنه، سيهدأ ثم يعود.

أما هو فقد كان يعي ما يريده حين كان يقول: كتب اللّه لأبي النجاة والخروج من صفد حياً، ليُدفن في جنين، أما أنا فلقد كتب اللّه لي النجاة لأخرج من جنين حياً ولأُدفن في صفد، نعم أنا سأُدفن في صفد.

سار مبتعداً عن المكان يردد تلك العبارة، حتى ابتلعه الزقاق الخارج من المخيم وغاب عن الأنظار.



أحلام على زجاج

رأى صورته تنعكس من زجاج السيارة الفاخرة، اقترب من الزجاج أكثر لعل الصورة تتضح، استدار يميناً بعض الشيء، ثم عاد واستدار يساراً، عاد إلى الخلف بضع خطوات ثم تقدم قليلاً، حتى إذا اتخذت صورته المنعكسة أفضل أوضاعها ثبت في مكانه دون حراك، وراح يحدق في الصورة.

صورة تنعكس من زجاج سيارة سوداء فاخرة تتوقف في إشارة المرور، نظر في الصورة يتأمل وجهه وما حمل من غبار وبعض أشياء أخرى لم يستطع معرفة ماهيتها، وتأمل خطوط العرق التي تشق من بين طبقات الغبار المتراكم قنوات لجريانها، تأمل رأسه المستديرة ثم انحنى قليلاً، وحاول أن يستعين بالزجاج الذي يعكس الصورة لتنظيف شعره الأجعد مما علق به من مخلفات حملها الهواء، نظر إلى ملابسه الرثة المتسخة، واقترب من الزجاج وزاد تركيزه بينما كان يضبط حبلاً ملفوفاً حول وسطه، وقد اتخذه قائماً بأعمال الحزام الجلدي مؤقتا حتى قدوم العيد.



ومـا أن اقـترب، وقبـل أن ينهـي (هندامـه)، حتـى أحـس بالزجاج يبتلع معالم صورته، حملق مرة أخرى واقترب أكثر، فغابت صورته خلف الزجاج، وانعكست من الشباك صورة أخرى ربما أكثر وضوحاً من سابقتها.

نظر (مسعد) إلى الصورة الجديدة بكل ما حملت عيناه الصغيرتان من قدرة على التركيز، فأدخلته الصورة إلى مقصورة تلك السيارة الفاخرة من خلال شباكها، حاول التركيز أكثر، واستعان بكفيه ليحجب أشعة الشمس حتى يتسنى له رؤية كل ما يقع خلف ذلك الزجاج الأسود اللامع.

كانت الصورة الجديدة لصبي يجلس في المقعد الخلفي، قريب منه كل القرب في السن، بعيد عنه كل البعد في الهيئة والملبس ولون البشرة، كان الصبي يبادله النظرات وقد ازدان وجهه بابتسامة رقيقة، ينظر إلى مسعد باهتمام لا يقل عن اهتمامه، يرقب بإعجابٍ مجموعة البالونات التي اتخذت أشكال بعض الطيور والحيوانات، بالونات تداعب الريح ويداعبها، وقد رُبطت بحبال تلتقي بحبل واحد التف حول يد مسعد الذي أشغله الزجاج وما يحمل من صور عن النداء لتسويق بالوناته.



كانت قطعة (الشوكولاتة) التي يحملها الصبي هي أولى المشاهد التي جذبت انتباه مسعد، حيث كان الجوع قد نال منه، حينها ابتلع لعابه وقال محدثاً نفسه:

آهٍ لو يعطيني قطعة الحلوى تلك، أو جزءً منها، يا الله كم هي شهية، نظراته توحي أنه سيعرض علي ما أتمناه، لكنها متماسكة في يده جراء التكييف الذي يجلس في برودته، فإن أعطاني بعضها فستذيبها تلك الشمس التي كادت أن تذيب رأسي، يجب أن أجلس إلى جواره وأنعم معه ببرودة مجلسه كما سأنعم معه بتذوق الشوكولاته، لكن كيف لي أن أكون ناكراً للجميل؟ كيف سأجلس على ذلك المقعد الوثير النظيف بثيابي المتسخة هذه؟

في تلك اللحظات ابتلع مسعد لعابه مرة أخرى، وغرق في أفكاره، وجد نفسه يلبس ثياباً جديدة نظيفة، يجلس وراء الزجاج الأسود اللامع إلى جانب الصبي الذي قاسمه قطعة الحلوى، ينعم ببرودة هواء المكيف العليل، يأكل الحلوى ويتجاذب أطراف الحديث مع صديقه الجديد، حيث لا حرارة الشمس ولا الغبار ولا ملوحة العرق، يجلس بهدوء أراح أذنيه من



سماع صخب أصدقائه السابقين، الذين يعلو صراخهم لتسويق بضائعهم من علكة وسجائر ومناديل وبالونات، يتمتع بمذاق حلوى لم يرَها إلا صوراً في المجلات أو على واجهة بعض المحلات، يلبس ثياباً فاخرة تشبه إلى حدٍ كبير ملابس الفتى مع بعض الاختلاف في اللون.

فجأة ودون مقدمات عاد مسعد من شروده على صوت سائق السيارة يصيح به:

- ألا تسمع؟ كم ثمن البالون؟ أليست بالوناتك للبيع؟

- نعم، نعم، يا سيدي، إنها للبيع، ثمن الواحدة خمسة شواكل فقط.

- أعطني تلك، نعم تلك التي تنظر إليها، بسرعة، خذ النقود وناول البالون للصبي، هيا تحرك صارت الإشارة خضراء.

تناول مسعد القطعة النقدية ومد يده وأعطى البالون للصبي الذي تناولها بيده بعد أن أمسك ما بقي من قطعة الشوكولاتة بيده الأخرى، وما هي إلا لحظات حتى ارتفع زجاج نافذة السيارة التي غابت في المفترق بلمح البصر.



أما مسعد فتسلل بخفة من بين السيارات المسرعة، وناول القطعة النقدية لرجلٍ يجلس تحت شمسية متوضعة على الرصيف، واستدار يرقب الإشارة، حتى إذا ظهر لونها الأحمر ثانية، غاب بين السيارات المتوقفة يبحث في زجاج إحداها عن حلمٍ جديد.



مَلعون أبوكم

في قلبه من الغل ما يكفي لإبادتهم عن بكرة أبيهم، وفي نفسه من الكبت ما يكفي لإشعال النار تحت أقدامهم، وفي قلمه من الأفكار ما يكفي لفضح قبحهم وزلزلة عربدتهم، وفي شخصه جُبنٌ يثنيه عن فعل أي شيء مما ذُكر.

سيحرقون يدي إن كتبت، وسيقطعون لساني إن تكلمت، وسيبقون في تماديهم أن أبقيت على صمتي، فأي الشرور أصعب وأيها أسهل؟؟ كان ذلك الحديث يدور بينه وبين نفسه في تلك الليلة، حيث كان بصره معلقاً بشعاع نورٍ ينبعث من المصباح، واستمر الحديث حتى لاح الصباح.

هو: هل كان والدي على حق حين كان يقول لي (الإيد اللّي ما بتقدر تقطعها بوسها)؟؟

نفسه: وما الذي جنيته من نصيحة والدك في السكوت ولثم الأيادي؟

هو: عشتُ بأمان ونعمت بالسلام.



نفسه: بل غرقت في الذل وأغرقتني معك، لثمت يد زميلك طفلاً كي لا يصفعك، فلطمك، لثمت قدم زميلتك شاباً كي تحبك، فكرهتك، لثمت يد مديرك كي يرضى عنك، فسبك ومن ثم أقعدك، لثمت أيادي الناس في الشوارع، حتى غدت كرامتك تحت نعالهم، فهل ستَلْثُم أيادي هؤلاء أيضاً؟؟

هو: وهل لي أن أواجه هؤلاء؟ وهل أمتلك مقومات المواجهة؟

نفسه: نعم، فإنك تمتلك قلمك، اسحبه من غمده وأشهره في وجوههم.

هو: سيكسرون قلمي إن وقف في وجوههم، وسيحرقون يدي إن كتبت ما يسوؤهم.

نفسه: يدك محروقة من غلك وكبتك، وقلمك مكسور مما تكتبه عن توافه الأمور.

كان بصره ما زال معلقاً بضوء المصباح، حتى أطفأته أشعة الشمس التي بدأت تتسلل إلى حجرته، فملأ النور المكان، وفاض على بصيرته فانتفض، أحس للمرة الأولى أنه يلقي عن



كاهله ما يعتريه من توتر وخوف وقلق، فاستل قلمه، وقام من مكانه يبحث عن الورق.

أحضر ورقة بيضاء، وسطر في وسطها العنوان (ملعون أبوكم)، نزل إلى بداية السطر الأول فأحس بيده ترتجف، ارتعشت أوصاله، اصطكت أسنانه، تعرق جبينه، وراحت حبات العرق تتساقط من مقدمة أنفه وتستقر فوق الورقة لتنتشر في دوائر شفافة، صاح بعلو صوته: أيتها النفس اللعينة، تباً لك، تبعتك إلى التهلكة، ما الذي صنعته؟ كيف طاوعتك؟ وهل أنا ندٌّ لهؤلاء؟ يا ويلي، سيعلمون بفعلتي، سيحرقون يدي، ذلك إن لم يقطعوها من حدها، كلا وألف كلا، لن أخوض معك تلك المغامرة، اتركيني وشأني.

كان يصرخ بتلك الكلمات وما زال يمزق الورقة إرباً إرباً، حتى صارت الورقة كومةً من القطع الصغيرة وكأنها عش فأر، وكان يقلبها ذات اليمين وذات الشمال، متفحصاً تماسك أحرف العنوان، وحيث أن كومة القطع التي آلت إليها الورقة لم تكن قادرة على تهدئة روعه، قام مسرعاً وأحضر ماعوناً وجالون كاز وعلبة كبريت، وبهمة ونشاط، وبتوتر واضطراب، وضع



قطـع الـورق في المـاعون وأغرقهـا بالكـاز حتـى ارتـوت ومـن ثـم أشعلها.

كـان ينظـر إلى اللهب فيختلط لـون النـار بحمـرة عينيـه، وكانـت حبـات العـرق تتسـاقط علـى ألسـنة اللـهب فـلا يـدري هـل تؤججها أم تحد من اشتعالها، يمـد يـده بـين الحـين والآخـر ليقلـب قطع الورق لضمان اكتمال احتراقها واختفاء حروفها.

ومــا هــي إلا لحظــات حتــى دوى صــراخه ليهــز أرجــاء المكـان، فلقـد سـحب أصـابع يـده مـن بـين ألسـنة اللـهب، بعـد أن أصبحت جزءاً من الحريق، حمـل كفـه المتفحمـة بكفـه الأخـرى وهرع إلى الصنبور، يصب الماء عليها بغزارة ويصيح ألماً، ودون أن يدري كان صوته يعلو فيرتد صداه ليملأ المكـان، ودون أن يعـي خرجت من بين الأنات والآهات عبارة:

(ملعون أبوكم، ملعون أبوووووووووووووووووووووكم).



أحرار وعبيد

عاد من رحلة صيده بأسدٍ وكلب، وضعهما في قفصين منفصلين متجاورين، حتى إذا هَمَّ ليغادر المكان صاح:

- يا غلام، أطعم السجينين.

ضحك الكلب وقال للأسد:

- سعادتي بهوانك تخفف همي، فلقد تساويت معك في المكان وفي المسمى، حيث جمعتنا الأقفاص وكلٌ منا صار يُدعى السجين.

ضحك الأسد أيضاً وقال:

وسنعود من جديد، لنتساوى أنا وأنت في المكان وفي المسمى، حينها ستجمعنا البرية، وكلٌ منا سيدعى الطليق، وستعلم في ذلك الغد غير البعيد، كيف هُمُ الأحرارُ، يختلفون عن بعضهم، ويتساوى العبيد،,,,



مخصوم

في طريق عودتي من مدينة طولكرم إلى جنين، وفي منتصف الطريق، وفي بلدة سيلة الظهر تحديداً، وقفت بسيارتي خلف بضع سيارات متوقفة أمام حاجز حديدي رفعت فوقه إشارة (قف) كتبت بالعربية والعبرية والانجليزية.

سألت سائق السيارة المتوقفة أمامي عن الأمر فقال لي:

يبدو أنه حاجز للجيش الإسرائيلي.

أوكلت أمري إلى الله وعدت وجلست في سيارتي، وسرعان ما توقفت سيارة أخرى بالخلف، ترجل سائقها وسألني عن سر إغلاق الشارع، فأجبته بما سمعت:

(يبدو أنه حاجز للجيش الإسرائيلي)

بعد عدة دقائق من الانتظار، نظرت في مرآة سيارتي، فلاح لي صف طويل من السيارات المتوقفة بانتظام وهدوء, (أعتقد أن كل سائق سأل سابقه كما سألت سابقي, وأن كل واحد منهم أجاب لاحقه بما أجبت لاحقي) كان خط المركبات



المتوقفة يتعرج مع تعرج الشارع الممتد وسط الجبل، راقني المنظر رغم غصتي، فنزلت من سيارتي، ومشيت مع امتداد بصري أرقب طابور المركبات الصاعد مع صعود الشارع ليصل إلى مشارف بلدة (بزاريا)، ولينحني بعد ذلك مع انحناء الشارع الهابط إلى مشارف بلدة (برقة).

كنت ما زلت واقفاً أرقب الهدوء والنظام والترتيب، حين قطع شرودي صوت قادم من السيارات الأمامية:

إنه ليس حاجزاً للجيش، بل أنها أشغال للبلدية ستنتهي خلال دقائق وسيفتح الشارع،

سألني من هو خلفي عن الأمر فأجبته بما سمعت، وتولى هو بدوره نقل الخبر، هنا بدأ الخبر ينتقل بأصوات عالية (ما في مخصوم، أشغال البلدية، ما في جيش).

وما هي إلا ثوانٍ حتى انطلقت أصوات أبواق السيارات لتقتل الهدوء، وسرعان ما تفكك انتظام الطابور، وطغى صوت المحركات على كل شيء، أصبح مسرب السيارات ألف مسرب، وصارت كل المركبات صغيرها وكبيرها تتجه نحو



نقطـة الإغــلاق، ودون أن نعـرف السـبب كانـت بعـض أبـواب المركبات تنفتح بعنف ليلتقي من بداخلها يسلمون على بعضهم بالعصي (والجكات)، ناهيك عن الشتائم التي تسمع من النوافذ (وقد كانت في غالبها من تحت الزنار)، بسرعة البرق غدت نقطة الإغلاق أشبه بساحة حرب، أو ساحات سيارات الخردة التي تتكدس فوق بعضها البعض.

وحين زال العائق وتم فتح الشارع، لم يستطع أي منا العبور، فكومة المركبات احتاجت إلى ساعات حتى تفككت، وما تفككت إلا بعد إصابات طفيفة وجسيمة في أجساد المركبات وركابها

حينها قلت: ليته كان (مخصوماً)، ليته كان...............؟؟

لم أكمل، وقطعت عبارتي بقول (اللهم إني صائم).



حوار مع "أبو القاسم الشابي"

قال لي أبو القاسم الشابي:

إذا الشــعب يومـــاً أراد الحيـــاة　　　فـــلا بـــد أن يســـتجيب القـــدرْ

ولا بـــد لليـــل أن ينجلـــي　　　ولا بـــد للقيـــد أن ينكســـرْ

فقلت يا أبا القاسم:

وكيــف لنــا أن ننــال الحيــاة　　　بشــعبٍ جهــولٍ أكــولٍ سَــعِرْ

نحـابي الظَلـومَ ونهـوى الطغـاة　　　ونحــني الــرؤوس لمــن يقتــدرْ

فغصــنا بوحــلٍ لحــدّ الجبــاه　　　وصــرنا مداســاً لبــاقي البشــرْ

وبتنـا نخـاف صـعود الجبـال　　　فعشـــنا أذلاء بـــين الحفـــرْ

ونسـعى ونلـهث نحـو القيـود　　　وقلنـــا أيـــا قيـــد لا تنكســـرْ

ويـــا أيهـــا الليـــل لا تنجلـــي　　　وخـــذنا بعتمـــك كـــي نَســـتترْ

انتهـى الحـوار وسـاد الصـمت، ومـن ثـم ضـحكت (مُتَمْسِحاً)، بينما كان أبو القاسم يبكي.



ملوخية بالكتب

لم يكن تجواله في ذلك الزقاق الشعبي مُستغرباً، فلقد اعتادت قدماه الوصول إلى كل الأمكنة، وفي أي وقت، فمن هذا المكان قد يأخذ فكرة لينسج حولها قصة يكتبها، ومن ذلك التجمع قد يرصد انتقاداً يجسده في مقال، ومن مكان آخر قد يصور منظراً يضعه في برواز من الشعر.

أما جديد ذلك اليوم، وما يدعو للاستغراب، فهو عَزْمُ الكاتب عزام على دخول محل لبيع الخردوات يقع في آخر الزقاق، ولم يكن تردد عزام في دخول المحل استعلاءً على بعض الناس أو مخافةً من انتقادات بعضهم، فهو بعيد عن الكبر كل البعد، واثق بنفسه كل الثقة، ولكن كل ما في الأمر أن تلك المحلات لم تثر فضوله قبل اليوم.

دخل المحل بخطوات ثابتة واثقة لا تخلو من بعض الحذر، كي لا تدوس قدماه شيئاً من البضائع المعروضة، ففي تلك المحلات لا وجود للرفوف، حيث تعرض البضائع على الأرض بشكل عشوائي، تتكدس فوق بعضها البعض دون تجانس أو



ترتيب، وهنا لا بد للزبون من جلوس القرفصاء والغوص بعمق بين البضائع المكدسة، فلقد اتخذت تلك المحلات في بلادنا عبارة (قرفص ونقي) شعاراً لها، حتى أن أجساد بعض الزبائن - من ذوي الخبرة - قد تختفي بين أكوام الخردة، وليس بالغريب أن ترى كومة في أحد الأركان تنشق فجأة ليخرج منها زبون ينفض الغبار عن رأسه ويحمل بيده قطعة ويصيح بالبائع: أهي صالحة؟ كم ثمنها؟ هنا يقول البائع رقماً يعتمد على شكل القطعة وهيئة الزبون ومدى إعجابه ورغبته بما يحمل، وفي أكثر الأحيان لا يعتمد التسعير على حسابات غير تلك.

كان عزام يرقب هذا النسق الغريب من التسوق بإعجاب ودهشة، ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة بينما يحدث نفسه:

والله لقد صدقت توقعاتي، فإني أرى أن كل كومة من تلك الكومات تحمل بين ثناياها قصة أو حكاية، وأن كل مقرفصٍ من هؤلاء يحمل في خباياه صوراً شتى، سأخوض التجربة معهم لأعيش الحالة أكثر، فإني أرى أن التسوق هنا ليس حكراً على البسطاء والفقراء وأصحاب الجهالة، فبعض الوجوه تحدث بأن أصحابها من ذوي المال وربما النفوذ، وبعض



الأحاديث الدائرة تنبئ أن أصحابها على قدر من العلم والثقافة، وربما جلبتهم إلى هنا ندرة البضائع، أو طريقة الشراء الممتعة وغير التقليدية، على كل حال لا بد من خوض غمار التجربة.

بسعادة وإثارة شمّر عن ساقيه وقرفص، وغاص مع الغائصين، كانت البضائع غير متجانسة البتة، حيث تختلط أدوات المطبخ بِلُعَبْ الأطفال بمعدات التجميل بعدد النجارين بأشياء غير معروفة ولا مفهومة، وكان عزام ينفض الغبار عن بعض القطع - بين الفينة والفينة - ثم يلقيها جانباً.

أما القطعة التي لاقت استحسانه فكانت (فرامة ملوخية) صنعت من معدن قوي صلب، حملها وصاح: كم تساوي هذه؟

- هذه بعشرين شيكلاً، قالها البائع دون دراية أو تفكير.

- ثمنها جديدة لا يزيد عن هذا، قالها عزام بصوت منخفض، وقد أعادها إلى مكانها.

وبينما هو مستمر بالغوص والتنقيب، وقعت عينه على طرف كتاب يظهر من بين أشياء كثيرة متناثرة، أسند ركبتيه



إلى الأرض ومد جسده وحرر الكتاب، وعاد إلى قرفصائه من جديد، قلب الكتاب بين يديه، بعد أن مسح عنه بعض الغبار وبعض آثار النعال، وكم كانت فرحته وصدمته شديدتين، إنه من أمهات الكتب العالمية، والذي طالما بحث عنه دون جدوى، حيث حصل على بعض أجزاء منه، ولم يفلح بالحصول عليه بنسخته الكاملة هذه.

هنا قام من مكانه مسرعاً واتجه نحو البائع وقال:

ما قصة هذا الكتاب؟

حمل البائع الكتاب وقلبه بين يديه باستخفاف واستغراب وقال:

أنت الذي سألتني عن فرامة الملوخية ولم يعجبك سعرها؟

- نعم، أنا.

- وهل تريد هذا الكتاب؟

- نعم أريده.



- اسمعني جيداً، لقد أحببتك، قالها البائع وقد وضع يده على كتف عزام وتابع يقول:

خذ الفرامة بعشرين شيكلاً ولا تجادلني في ثمنها، وخذ الكتاب دون ثمن (على البيعة)، ما رأيك؟ هل أنا مقصر معك؟؟

فغر عزام فمه، وقال بدهشة: (على البيعة؟؟)، هدية على فرامة الملوخية؟ يا لهوانك أيها الكتاب، يا لهوانك أيها المسكين.

وما هي إلا لحظات حتى خرج عزام من المحل يتمتم بنفس الكلمات، يحمل الكتاب والفرامة، يتطلع إلى الأفق ملاحقاً فكرة عزم على تنفيذها، محاولاً استذكار عدد النسخ التي طبعها من كتابه الجديد متعثر التوزيع.



عش السنونو

بصعوبة بالغة أزحت قدمي عن مسارها، فتولت قدمي الأخرى حمل جسدي بحركة خاطفة خلفت التواءً في ساقي، ما همني ذلك، فالأهم أني لم أدس الصغار، ونسيت ألمي عندما أيقنت أن الله قد كتب النجاة للفراخ التي لم يتجاوز عمرها اليوم الواحد.

ما كان متوقعاً أن أرى أفراخ طير السنونو ملقاة على الأرض، فأنا أعرف ذلك الطير، وأعرف أنه يصنع أعشاشه بطريقة يتفوق بها على سائر الطيور، فالسنونو يصنع عشه من الطين بعد أن يخلط التراب بالماء ويدعم الخليط بالقش الصلب، ومن ثم يركز البناء في زاوية آمنة.

أيقنت أن تلك الصغار قد تعرضت لحادثة، فرفعت رأسي متيقناً من وجود بيتٍ في الأعلى، وقد كنت محقاً، ها هو البيت يتركز في زاوية فوق رأسي، تفحصته فوجدت تهتكاً في إحدى جنباته، وأظن أن الصدع لم يكن لقلة إتقانٍ في البناء، فحرص السنونو على صغاره، وإتقانه لعمله، وصبره، وخبرته، والإلهام



الإلهي، كلها مؤشرات على أن أيادٍ عابثةٍ كانت وراء الصدع الذي أصاب البيت وأسقط الصغار أرضاً.

وقفت وفكرت، فراخ وبيت، معادلة سهلة، لا يمكنني إنقاذ الموقف إلا من خلال إصلاح البيت وإعادة الصغار إليه، وبالحال بدأت العمل، أبعدت الصغار جانباً بلطف، ووقفت على رؤوس أصابعي، وأصلحت العش بأن قمت بتثبيت قطعة الطين الساقطة، وقد اتبعت طريقة البناء القائمة، فقمت بغرس القش بالطين بعد أن بللته بالماء فصار ليناً يسهل تشكيله.

صار البيت جاهزاً، وإن كانت قطعتي تقل إتقاناً عن باقي البيت، فإنها - على الأقل - أفضل من ذي قبل، وستصلح لحماية الصغار من السقوط ثانية، أنزلت جسدي من ارتفاعه ووقفت ثابتاً في مكاني للحظات، فقد كنت ما أزال أشعر ببعض الألم في ساقي، وبقلة صفاءٍ في الرؤية نتيجة تركيز نظري على نقطة واحدة لوقتٍ ليس بالقصير.

أدرت بصري بفرحٍ وفخر، فسرعان ما ابتلع المشهد فرحي، وتلاشى معه فخري بما صنعت، إذ لا وجود للفراخ، أدرت بصري ومعه دار جسدي، حتى أصابني الدوار.



ضـربت جـبهتي بقبضـتي وقلـت: هكـذا نحـن دائمـاً ، نستثني المجهول من معادلاتنا فتفشل حساباتنا ، فمعادلتي هـذه لم تكن معطياتها تقتصر على صغار وبيت،

مشـيت في طريقـي تاركـاً خلفـي طيريـن مـن السـنونو يصفقان بأجنحتهما جزعاً فوق المكان، وقطاً سميناً يرمقني بنظراتٍ عجزت عن فهمها.



الحِمار

قلت له: أرجوك انطق، ما الذي جنيته من الصمت والرضوخ؟ سنوات وأنت على صمتك، هل يرضيك أن تكون حماراً؟ كيف يقبل الإنسان أن يكون حماراً؟

ظل صامتاً ينظر إلي بنظراته المعهودة التي أعادتني إلى سنين خلت، فلقد عرفناه منذ صباه دون أن ندري إن كان أصمَ وأبكمَ أم أنه لا يريد الكلام، ولم نعرف أيضاً إن كان (الحمار) لقبه أو اسمه الحقيقي، لكنه كان يبدو عادياً ويلتفت دون تردد حينما يناديه أحدٌ (يا حمار)، وقد كان التفاته المؤشر الوحيد على سلامة حاسة سمعه، وما من مؤشرات تنفي أو تؤكد قدرته على الكلام.

أما أنا فلم أنادِه بتلك الكلمة إطلاقاً، كان يمر بيننا عائداً من عمله بينما نحن نجلس أو نلهو في أطراف الحقول، فيصيح البعض: ها هو الحمار، بينما يسخر البعض: (دير بالك يرفسك)، وتتعالى الضحكات، فينظر باسماً كأنه لم يسمع



شيئاً، رغم أنني كنت على ثقة بأنه قادرٌ على طرح الجميع أرضاً دون عناء.

حينها كنت أقطع الطريق أمامه وأنظر في عينيه، فيلاقيني بابتسامة رقيقة شفافة، تفيض طيبةً وحباً، ويقف أمامي بقامة ممشوقة وملامح فيها الكثير من الرجولة رغم صغر سنه، وعينين فيهما الكثير من الأمور غير المفهومة، لكنها كانت تحدث بشكل جلي عن إنسان يتمتع بالقوى العقلية الكاملة، كنت أبادله ابتسامته وأدعوه لمشاركتنا اللعب أو الجلوس تحت ظلال أشجار السرو التي تحف جنبات الطريق، فتتسع ابتسامته ويمضي دون أن ينطق بكلمة.

جاء قريتنا منذ سنين طويلة برفقة والده، وقد سكنا بيتاً في أطراف القرية، كان صبياً ضخماً قوي البنية، يأخذه والده إلى الحقول مستعرضاً قدرته على العمل - أي عمل - .

يعلو صوته مخاطباً أصحاب المزارع: هل فيكم من يريد عاملاً؟ أقصد هل فيكم من يحتاج حماراً؟ يعزق الأرض، يحمل الأثقال، يدير السواقي، إني أتحدى به كل حميركم، انظروا



إلى ساعديه، وانظروا إلى ساقيه كيف تنغرسان في الأرض كأنها حوافر، أما الصبي فكان يقف إلى جوار والده بزهو، فرحاً بما يسوقه من صفات (حميرية) يتمتع بها.

لم يطل ترويج الوالد لقدرات ابنه كحمار، فبعد فترة وجيزة كان الجميع يتسابقون لتشغيله، فلقد أثبت قدرته وإتقانه لأي عمل يكلف به، تراه تارة يحرث الأرض بمحراث يجره دون عناء، وتارة يدير ساقية كان يتناوب على تشغيلها ثلاثة حمير، وتراه في المساء يجر عربة تحمل أكياس قمح يتربع صاحبها فوقها، وكم كانت ملامحه تعكس الفخر حين يمتدحه أحدهم فيقول: (إنك فعلاً بقوة حمار).

كم أشفقت على حاله، وكم وددت لو أنني أستطيع الدخول إلى تفاصيل حياته، حاولت ذلك مراراً دون جدوى، فلقد كان يستمع إلي ويرمقني بنظرات تحمل كل الود، ويبقى على صمته حتى يساورني الملل وأشاركه الصمت.

أما اليوم فلقد أحسست أن مهمتي بدت أسهل من ذي قبل، فلقد مات والده الذي (استحمره)، أيقنت أن تأثيري عليه سيكون أكبر، رغم أنه بقي على نهجه بعد غياب والده، يعمل



دون كلل أو ملل، يقوم بعمل عشرة رجال، مقابل أجرٍ بالكاد يطعمه الخبز الحاف، يأوي إلى سقيفته مساءً ليخرج منها قبل طلوع الشمس، راضياً بعيش الحمير، سعيدا بألقابها وصفاتها التي يُنعت بها.

عدت من شرودي لأجده أمامي صامتاً ينظر إلي بنظراته المعتادة، أمسكته بكتفيه وهززتهما بكل قوتي التي تلاشت أمام صلابته، وصحت به:

ما زلت على صمتك الأبله؟ ألا تريد أن تكون إنساناً؟ تكلم وقل لي كيف ترضى بذلك؟ كيف تقبل أن تعيش حماراً وتموت حماراً؟ كيف تقبل أن تكون قُوتك وبالاً عليك؟ تكلم، قل شيئاً.

أحسست — وللمرة الأولى — أن ملامح وجهه بدت مختلفة، غابت ابتسامته عن شفتيه، واستبدلها بحركات غريبة، كان يزمهما ويطبقهما ثم يرجعهما، يأخذ نفساً عميقاً ويخرجه من بين شفتيه بحركات غريبة، أيقنت حينها أنه يريد الكلام، فصرخت به بصوت أعلى:



نعم، تكلم، قل شيئاً، انطق، انطق بأي كلمة، أريد أن أعرف ما بداخلك.

وكم كانت دهشتي حين نطق، أطبق شفتيه وزمهما وأخذ نفساً عميقاً حتى انتفخت أوداجه، وأصدر صوتاً أصم أذني فأغلقتهما دون أن أعي ماهية الصوت، وأشاح بوجهه عني وجرى بسرعة الريح.

ناديته: عُدْ إلى هنا أرجوك، وخذ الوعد أن لا أكلفك بما لا تُطيق.

لم يكترث بندائي وسار حتى ابتلعته الطريق, يجري ويعلو صوته بالنهيق،

هاق هيق هاق هيق هاق هيق.



في مرآتي رَجُل

في مرآتي،، كنت أرى ذاتي، أما اليوم فرأيت رجلاً يشبهني، يقلد كل حركاتي،

دنوت منه فدنا،

قلت: هل أنت أنا؟

قال: لا أنا أنت، ولا أنت أنا، فأنت هناك أمام الزجاج وأنا هنا.

قلت: ألهذا الحد قد يتشابه الرجال؟، لا لا، هذا محال.

قال: أنت الحقيقة وأنا الخيال، ولن نكون واحداً بأي حال.

قلت: أنت دوماً معي، تغيب متى غبتُ، وتأتي عندما آتي، أرى فيك نفسي، وأرى ملامحك محملةً بآمالي وأهاتي.

قال: آتيك حين تأمرني، فأنت الآمر الناهي.



قلت: لكنك تلبس ثيابي، وتأكل ما آكل، وتشرب من شرابي، تقف إن وقفتُ، وتجلس إن جلستُ، بأمشاطي تُسرح شعرك، ومن قواريري تسرقُ عطرك.

قال: أنا الخيال، أعكس لك ما يبدو منك وما يظهر، ولا أعكس جوهرك، فأنا أصلاً بلا جوهر.

قلت: ومن منا الأقوى؟

قال: أنت طبعاً، ألم تفهم بعد؟ أنت السيد وأنا العبد.

قلت: ومن منا الأطول عمراً؟

قال: أنت أطول مني عمراً، وباستطاعتك أن تعيش دوني دهراً.

قلت: لا أصدق هذا، أنا الملموس، أنا الموجود، وأنت بلا وجود، سأموت وتبقى أنت، فأنا حيٌّ والحي يموت، أما أنت فمتى وكيف تموت؟

قال: أموت متى أردت، ما عليك إلا أن تحطم هذا الزجاج، وستراني أتبعثر مع حطامه، وتبقى أنت.



لم أصدق ما قاله، فطوال عمري كان الخيال يسوقني فاتبعه، يغيب عني فأطلبه، حتى ظننت أنه أقوى مني ومن حقيقتي، شردت مع كلامه فدفعني الفضول للتجربة، أمسكت قنينة العطر وصوبتها نحو الزجاج، أما هو فحمل القنينة وصوبها نحوي، وكلانا رماها بقوة نحو الآخر.

تصدع الزجاج دون أن ينهار أرضاً، وفرقت الشروخ أوصاله، أما الرجل فتهشمت معالمه، وتلاشت بعض أجزائه، حينها أطل علي بوجه مشوه من بين الشظايا وقال:

ألم أقل لك؟ أرأيت؟؟ أرأيت؟؟؟

قلت: يا هذا، وكيف تراني من هناك؟؟ أتراني أحتضر كما أراك؟

قال: كلا، إني أراك كما أنت، تقف أمامي كما كنت.......

وقبل أن يكمل حديثه وقع أرضاً وغاب بين الحطام.



مع سبق الإصرار

في الخامسة عشرة من عمري كانت أولى سرقاتي، حينها سرقت برتقالة، أكلتُ ثلثها وخبأت لحبيبتي الثلثين، فليس دائماً (للذكر مثل حظ الأنثيين).

لم أكن أعرف حبيبتي، إنما كنت مدركاً بأنني سأحبها أكثر من نفسي وأكثر من البرتقال.

قالوا: سنقطع يدك.

قلت: حين أتصرف بمسروقاتي، أسلمكم يدي.

بعد سنين وجدت حبيبتي، أعطيتها ثلثي البرتقالة فأكلتها، وأعطيتهم يدي فقطعوها.

قالت: ما أشهى هذا البرتقال.

قلت: انتظريني هنا، فما زالت الشجرة مثمرة، وما زالت لدي يد، فإني أحبك أكثر من نفسي وأكثر من البرتقال.



أعمار وفخار

كُسرت يده بينما كان يقتلع الأحجار، فطوقها بطوق معجون من الفخار، وسيرميه بعد التحام الكسر، فكم هي العظام نفيسة، وكم هو الفخار سهل المنال، مات واحتواه القبر، والطوق بيده ما زال.

اليوم اكتشف هواة الآثار قبره، بعد ثلاثة آلاف عام، أخذوا الطوق النفيس وارتحلوا، وتركوا العظام.

جَفَّ المُقَطَعُ

عبر سنين طويلة كان نهر (المقطع) يجري، يسقي سهول الخير بعذب مياهه، ويُطرب أهل السهول بعذب الخرير، يحمل المياه من ينابيع جنين، ليصبها في بحر عكا، اليوم زرت مجرى النهر، فصعقت لجفافه، وإذ أمعنت النظر، وأصابني الكدر، سمعته يحدثني:

نعم، أصابني الجفاف ولم أعد أجري،

وأشار إلى الجدار !!!!!!!

قلت: لكنهم أقاموا فوق مَجراك جسراً، فأتاحوا لك العبور،

قال وقد نال الجفاف من صوته:

أبداً لن أجري في وطني، بتأشيرة مرور.



جلاد وشعير

سطونا على إسطبلٍ للخيول، أنا ،,, وبعض أصحاب الهفوات مثلي، وبعض المحترفين من اللصوص.

بعضنا سرق لجاماً نحاسياً، والبعض ركاباً فضياً، أما أنا ،,, فلم أغنم سوى حفنة شعير، بينما ظفر أحد المحترفين بفرسٍ نحوص.

فَرَّ الجميع، , ولم يُقبض على أحدٍ إلاي، خمسون جلاداً اشتركوا في جلدي، حتى تبرأ لحمي من جلدي، والكل صاح:

تلك هي القوانين، وتلك هي النصوص.

مع الجلادين، كان سارق الفرس يجلدني، دون هوادة كان يجلدني، ,,, ويَسُبُ اللصوص.



لماذا أنت أصلع؟

اليوم، كنت أتصفح مجلة طبية، فاستوقفني موضوع يتحدث عن (الصلَع)، قرأت بتمعن واهتمام عن أسبابه، حالاته، إمكانيات علاجه، ذلك لكوني أحد أصدقائه.

وما أن انتهيت من قراءة الموضوع حتى أسندت رأسي إلى حافة الكرسي باسترخاء، بينما استقرت المجلة في حجري، مفتوحة على ذات الصفحة، وشردت بفكري عائداً إلى سنين خلت، ابتسمت حين خطر ببالي سؤال وجهته لأبي حين كنت طفلاً:

لماذا أنت أصلع يا أبي؟

ابتسم وقال لي دون أن يفكر في الإجابة:

بينما كنت صغيراً وقعت في وعاء ماء ساخن فسقط شعري.

اتسعت ابتسامتي حين عاد الموقف إلى ذاكرتي، وقلت محدثاً نفسي:



رحمك الله يا أبي، أسكتّني بالجواب لتريح نفسك من عناء الشرح والتوضيح، أعترف الآن لو أنك حدثتني عن ظاهرة الصلع لما كنت فهمت، ولكن كان بإمكانك تبسيط الصورة بما يتناسب وفهمي حينذاك.

أخذت نَفَساً عميقاً واتجهت ببصري نحو صورة أبي المعلقة على الحائط، ترحَّمْتُ عليه مرة أخرى، وتابعت الحديث بسرّي:

حقاً إن طرق تربيتنا لأبنائنا، واحترامنا لعقولهم أفضل ألف مرة مما كانت عليه.

في تلك الأثناء - ودون أن أشعر بوجوده - كان ابني الصغير يجلس إلى جواري ويتكئ على رجلي، يتعلق بصره بالمجلة المفتوحة في حجري، يحاول تهجئة الكلمات، وحين استطاع قراءة بعضها - أظن كلمة الصلع كانت من بينها - داهمني بسؤال قطع شرودي:

لماذا أنت أصلع يا أبي؟

ابتسمت وقلت له دون أن أفكر في الإجابة:

بينما كنت صغيراً وقعت في وعاء ماء ساخن فسقط شعري.



جـوع

قالوا سنبقيه جائعاً ليظل تابعاً.

حتـى إذا بلـغ الجـوع منـه مبلغـاً ، انـدفع نحـوهم ينظـر إلى لحوم أكتافهم بشهية.



فرصة

ظل قاعداً ينتظر فرصته التي سيحقق من خلالها أمراً عظيماً يُدخله سجل الخالدين، انتظر وانتظر، ثم انتظر.

وفي ليلة غاب عنها ضوء القمر، جاءه زائرٌ غريب الشكل، رحب به أيَّما ترحيب، وقال: جئت أخيراً تحمل إلي فرصتي؟ ألست أنت من يحملها إلي؟؟؟

دون أن يكترث به، كان الزائر قد قبض روحه وغاب يتصعد بها إلى السماء.



ظِـل

اختال ظل الشجرة بتعاظمه وامتداده شرقاً كلما مالت الشمس غرباً، صاح بالشمس بزهوٍ وتعالٍ: هيا أسرعي أيتها البليدة ليزداد طولي.

قالت الشجرة: تأدب يا ولدي.

صاح بالشجرة: اصمتي أيتها الوضيعة، من أذن لك بالكلام؟ أما تخجلين من طولي ومن عظمتي؟

قالت الشجرة: بل اخجل أنت، أنا والشمس أبواك، تأخذ مني طولك، ومن الشمس تستمد قيمتك.

رد الظل باستهزاء: بل أنا سيدك وسيدها، انظري إلى قامتك التي تهاوت أمام امتدادي، وتنبهي كيف يؤثرني الجميع ويتبعوني، وتلك شمسك، إنما هي تعمل عندي، تسير في السماء دون توقف كي تقلبني ذات اليمين وذات الشمال فلا يساورني الضجر.



سـكتت الشـجرة حـائرة، واسـتمرت الشـمس بعملـها متجاهلة، أما الظل فظل يصيح بزهو وافتخار وتعالٍ، حتى اختفى فجأة مع مرور أول سحابة صيف.



تجاهُل

التقيته في الشارع وجهاً لوجه، فعرفته دون أن أدقق في ملامحه، تهيأت لسلام حار, ومحطة أسئلة عن الأحوال والأخبار، أما هو، وما أن دخلنا في مجال البصر حتى أشاح بوجهه عني، بمجرد أن التقت بعينه عيني.

لم ترُقْ لي فعلته، ففعلت كما فعل، وسرت في طريقي دون أن أنظر صوبه (فالبادئُ أظْلَم)، عرفته خلال أربع سنوات خلت، كان خلالها صاحب حاجة يطلبها من مكان عملي، ومع الأيام ومراجعاته المتكررة، نشأت بيننا علاقة، علاقة عمل لا تخلو من بعض أجواء الصداقة، فقد كنت أعرف ظروفه، كان يأتينا بإذن من مكان عمله، أو مرهقاً بعد انتهاء دوامه، وبدوري كنت أقدم له أقصى ما أستطيع من المساعدة في إنجاز ما يريد.

كان إنساناً خلوقاً حلو اللسان، يشكرني بكل عبارات الشكر، ويثمن ما أقدمه له من عون ومساعدة، وما كان يأتي دون أن يعرج علي سائلاً عن أخباري.



عدت من شرودي وأنا أبادله التجاهل، وما زال كلٌّ منا يسير باتجاه الآخر دون أن نلتقي، استرقت نظرة نحوه، فإذا به يفعل مثلي، ينظر إلي قليلاً ثم يدير وجهه قبل أن أراه.

قلت محدثاً نفسي: لا يريد معرفتي، فلقد انتهت حاجته التي كان يعرفني لأجلها، وما عاد يأتي إلى مكان عملي، يبدو أنها كانت معرفة مصلحة، وما كانت مجاملاته وسلاماته إلا ثمناً للخدمة المميزة التي كان يتلقاها مني، تباً لهكذا أناس، مصلحتهم فوق كل اعتبار.

دارت برأسي تلك الأفكار خلال وقت قصير, كان كلٌ منا قد مر عن الآخر, وبينما أنا غارق في استيائي وسخطي وإذا بيدٍ تمتد من خلفي وتستقر فوق كتفي، نظرت بذهول، فبادرني يقول:

- والله ما عرفتك لولا أني وقفت ودققت في ملامحك، فلقد اعتدت أن أراك جالساً خلف مكتبك، اليوم أراك في الشارع للمرة الأولى، وقبل أن أنبس بكلمة كان قد مد يده وصافحني، وما أن صافحته حتى شدني إليه وعانقني بحرارة.



اتخذت وإياه مكاناً جانبياً، ووقفنا بعض الوقت، كان يسألني عن أخباري وعن عملي وعيالي، ولا يتوقف عن عبارات الشكر والامتنان على ما كان، أما أنا فكنت أرد عليه ثناءه بشيء من الخجل، أبادله الابتسام، وألعن بسري سوء الظن.



أبو رفيق، إرهابي أم زنديق؟

أبو رفيق، يلبس بيجامته الزرقاء السماوية التي أرسلتها له ابنته الوحيدة من الكويت قبل سنين عديدة، لتكون آخر هدية تصله منها قبل أن تدخل سجل المفقودين إبان حرب الخليج، وقد اعتاد أن يقفل جميع الأزرار صيف شتاء، فتراه يطرب لاحتكاك الزر العلوي بتفاحة آدم البارزة من رقبته النحيفة، يجلس أمام (خشته) الطينية التي طُلي جدارها المطل على الشارع باللون الأزرق السماوي، فتحسبه بالبيجامة السماوية جزءاً من الحائط، أو أنه والحائط قطعة واحدة سقطت من السماء.

غير مكترثٍ بحركة المارة وتحياتهم، كان يجلس هناك ليل نهار، مقعد من الخشب القديم للجلوس، يقابله آخر يضع فوقه علبةً من التبغ (الهيشة) وورق اللف، وصحناً فيه بعض الماء يحوي طقم أسنانه، ومنديلاً من القماش.

الناس يتراكضون، الأصوات تعلو، الزقاق مزدحم، أبو رفيق ثابت في مكانه لا يأبه بما يحدث ولا يحركه الفضول، (قناة الحقيقة الإخبارية) في المنطقة، تبحث عن الحقيقة أو عن



الحقائق بين جموع المغلوبين على أمرهم، طواقم العمل بلباسهم الغريب عن لباس رجال الزقاق، والمذيعة التي كل ما فيها يختلف عن نساء الزقاق، كلهم يسعون نحو الحقيقة، أبو رفيق على مقعده لا يتحرك، ولا تهمه الحقيقة، ولا يتدافع مع المتدافعين نحو الكاميرات.

من بين الجموع، وبصعوبة بالغة، شقت مقدمة البرنامج طريقها نحو (أبو رفيق)، فلربما جذبها اللون الأزرق السماوي نحوه، أو ربما اختلافه عن الباقين، أو أنها أحست أنها ستحاور التاريخ من خلاله.

- مساء الخير يا حج......؟ أبو رفيق، أبو رفيق، أبو رفيييييييق، صاح المحتشدون من أهل الزقاق.

- مساء الخير يا حج أبو رفيق.

رفع أبو رفيق رأسه قليلاً، نظر إلى (الميكرفون) الموجه نحوه باستغراب، ورمق الفتاة بنظرة كأنها الإعجاب، وعاد ينشغل في إعداد لفافة من (الهيشة)، دون أن يرد التحية.



- نريد أن نعرف رأيك فيما يدور في البلدان العربية، وهل لأمريكا يدٌ في ذلك؟ تفضل أنت على الهواء.

رفع الرجل بصره الذي كان معلقاً بلفافة الهيشة، وصوبه باتجاه الكاميرات، وقال:

تفووو، وكررها بضع مرات متقطعة، ودون أن يضيف شيئاً تناول علبة الكبريت وأشعل اللفافة، وبدأ ينفث دخانها، حتى اختلط صوت سعاله بسعال محدثته.

انقطع البث عند ذلك المشهد، وما هي إلا دقائق حتى بدأت البيانات بالصدور تباعاً:

فضائية الحقيقة قالت في تعليقها على الحدث أو الحادث: مدسوس مأجور من قناة أجنبية معادية يتعمد الإساءة للقناة.

فضائية (الأحرار الأحرار) قالت في بيانها: فدائي من المحاربين القدامى يضع رأس أمريكا في الوحل.

فضائية (الصحوة) قالت: كافر زنديق يسخر من الصحوة الدينية.



فضائية (شيكاغو) قالت في خبر عاجل: إرهابي خطير يسب دولة الديمقراطية والعدالة على الهواء مباشرة.

بيانات سمعها الجميع إلا (أبو رفيق)، الذي كان يجلس على مقعده، يلبس بيجامته السماوية، ويسند ظهره إلى الحائط السماوي، يلف لفافة جديدة ويلصق حوافها بلسانه، وما زال يُصدر ذات الصوت (تفووو)، محاولاً بذلك تنظيف لعابه من فتات (الهيشة) التي علقت في فمه.



تخاريف

عندما دُفن والده، وفي الليلة الأولى بعد دفنه، استذكر قصة يوسف، فحمل قميصه وألقى به فوق القبر، وقال:

إن كان قميص يوسف قد رد على أبيه بصره، فما يمنع قميصي أن يرد على أبي الحياة؟؟؟

عاد بعد أيام وجلس إلى جوار القبر، وكم أحس بالرهبة حين رأى قميصه في حركة دائمة نشطة، تماسك واقترب، وضع يده الراجفة فوق القميص بحذر، فنشط الحراك، وأحس بدفء الحياة يلسع يده، صاح بعلو صوته: إنها الحياة، أقسم أنها الحياة، الدفء والحركة تنبعثان من قميصي، إنها بداية عودة والدي إلى الحياة.

اقترب خطوة، ارتعش بشدة، تماسك أكثر، رفع القميص بحذر، وكم كانت دهشته حين رأى أحد عشر فأراً صغيراً والأم الأب تحت القميص جاثمين.



الصدفة أم الخطأ؟

تنظر في ساعتها كل دقيقة، كل ملامح وجهها تُحدث عن توترها، الطاولة تهتز مع اهتزاز رجلها اللاإرادي، ترد على النادل بحدة وعصبية كلما جاء يسألها عن طلباتها، وتصيح في وجهه: للمرة الألف أقول لا أريد شيئاً، أقصد لا أريد شيئاً الآن، عد بعد قليل، وسرعان ما تحمل هاتفها وتطلب الرقم بأصابع مرتعشة، وتعود لتغرق في توترها، وتشرد مع قلقها، حين لا تجد في الاتصال ما يخمد نار قلبها.

فلقد اعتادت أن تأتي لتجده في انتظارها متلهفاً لقدومها، ما تأخر إلا لأمر جلل، وما أعاقه إلا أن أصابه مكروه، تتمتم بتلك الكلمات تارة وتحاول التخفيف عن نفسها وطرد هواجسها تارة أخرى وذلك باستحضار شريط ذكرياتهما.

كانت تجلس على الطاولة التي جمعتهما أول مرة، واحتضنت حبهما شهوراً كانت بالنسبة لهما الحياة وكل ما مضى منها، وغابت مع شريط الذاكرة من بدايته.



تـذكـرت اللقـاء الأول، والـذي كـان علـى هـذه الطاولـة بالـذات، حينهـا تـرك طعامـه واتجـه صـوبها متردداً، وقـف أمامهـا ونظـر إلى وجههـا وعلامـات الحيـاء باديـةٌ علـى محيّـاه، اسـتجمع نفسه وقال بصوت منخفض:

- ليلى؟ أنت ليلى، أليس كذلك؟؟

نظـرت إليـه باسـتغراب، وضـعت سـكينها وشـوكتها في الطبـق باضـطراب، سـحبت منـديلاً ووضـعته علـى فمهـا، وقالـت بصوت متقطع:

- لا، لا، لست ليلى.

- مستحيل، لا يُعقل أن يصل الشبه إلى هـذا الحـد، أمـا كنـتِ معنا في قسم الهندسة في الجامعة؟

- يـا سـيدي، لسـت ليلـى، ولسـت مهندسـة، ولا أحـب الهندسـة، (ويخلق من الشبه أربعين).

- هذا الجمال لا يُخلق منه عدد كبير، عفواً على صراحتي، أو لنقل وقاحتي؟



- العفو منك، أشكرك على المجاملة. قالتها وقد ازدان وجهها بابتسامة رقيقة وتوردت وجنتاها

- على كل حال، أعتذر منك إن كنت مزعجاً، وللعلم، حساب طاولتك مدفوع.

- لا ... لا أرجوك، انتظر، أنت دفعت عن ليلى، ولست أنا ليلى، انتظر.

ودون أن يلتفت صوبها كان قد غادر المطعم مبتسماً، أما هي فقد جلست حائرة يعتريها الخجل وأشياء أخرى، حاولت إكمال طعامها فلم تستطع، كانت ابتسامته لا تزال عالقة في مخيلتها، خرج وغاب عن عينيها بجسده ولم يغب طيفه، ولم تبرد رائحة عطره التي يعبق بها المكان، ابتسمت، مسحت يديها بمنديل معطر، وقد حاولت أن تبدو متماسكة حين غادرت إلى مكان عملها القريب.

كان اليوم التالي مختلفاً عن أيام كثيرة تناولت فيها الطعام على تلك الطاولة، كانت تجلس وتدور بنظراتها في أرجاء المطعم، تنظر في وجوه الجالسين تارة وترقب الداخلين تارة



أخرى، وكلما أحست بشيء من الخجل يعتريها قالت لنفسها: إنما انتظره لأرد له ما دفع، ولست أنتظره لسبب آخر.

وفجأة ودون مقدمات أحست برعشة سرت في جسدها، رأته يجلس وحيداً هناك، يجول ببصره في أرجاء المكان دون توقف، يرفع رأسه حيناً ويميل بجسده حيناً آخر يبحث بلهفة عن شيء ما، أما هي فتوقفت بنظرها عند تلك النقطة بكل تركيزها، وما هي إلا لحظات حتى توقف بصره أيضاً عن البحث وعند ذات النقطة، التقت نظراتهما، همت دون دراية لتذهب نحوه، فأقعدها عن ذلك الحياء، فبادرها بالقدوم.

- مساء الخير، قالها بالكثير من التهذيب وبعض الخجل.

- مساء النور.

- وصلت إلى هنا ولا أعرف سبب قدومي، وارتسمت على وجهه حينها ابتسامة خجولة جذابة بريئة كأنها مرسومة على وجه طفل.

- أما أنا فقد كنت سآتي إليك، لكني أعرف السبب، سأرد لك ما دفعت بالأمس.



- لا يا سيدتي، فلا أظنك تقبلين إهانتي.

- إذن عليك أن تقبل عزومتي، هل تناولت غداءك؟؟

قطع النادل حبل خيالها المحلق فيما مضى: والآن، هل أحضر لك شيئاً؟؟

- لا، قلت لك ليس الآن، قالتها بهدوء، وكأنها لا تريد أن تعود لتوترها فتغيب عن ذاكرتها تلك اللقاءات، أجابت النادل وعادت إلى الماضي،

تذكرتْ كيف أنهما اعترفا لبعضهما بالإعجاب في ذلك اللقاء، وكيف صار اللقاء شبه يومي، قال لها يوماً: أعيش يومي كله لأجل هذه الساعة، فقالت: أما أنا فلا أعيش إلا هذه الساعة، وقالت له في لقاء آخر، هل جمعتنا الصدفة، أم هل جمعنا الخطأ؟ أتذكر كيف حسبتني ليلى؟ قال: بل جمعنا القدر، وربما جاء على هيئة خطأ أو صدفة، إنما هو القدر، ألا تحسين بأننا خلقنا لبعضنا؟ وهل تنكرين أن كلاً منا كان يبحث عن الآخر؟



استذكرت كيف جمعهما هذا المكان الضيق، فرسما من داخله أحلاماً لا يكاد يسعها الكون برحابته.

مرة أخرى أعادها صوت النادل إلى مكانها الضيق وإلى ضيق صدرها المقبوض خوفاً وتوتراً وقلقاً:

سيدتي. أنت تحتجزين الطاولة منذ وقت طويل، فهل ستطلبين الغداء؟

مسحت وجهها بكفَّيْها، وحملت ما لها على الطاولة وغادرت، وقفت أمام المطعم تنظر في كل الاتجاهات، ومن ثم سارت في الشارع المؤدي إلى مكان عملها تضع هاتفها على أذنها.

في تلك الأثناء، كان يتناول قهوته في مكان آخر، وضع الفنجان على الطاولة، وتناول من جيبه قلماً ذهبياً، ودفتر ملاحظات، فتح صفحة جديدة ودون في رأسها تاريخ اليوم، وتحت التاريخ وضع رقم عشرة (10) داخل دائرة.

بعد ذلك أعاد الدفتر والقلم إلى جيبه، ترك قهوته واتجه متردداً صوب طاولة قريبة، وقف أمام من تجلس هناك، حملق في



وجهها وعلامات الحياء بادية على محياه، استجمع نفسه وقال بصوت منخفض:

- ليلى؟ أنت ليلى، أليس كذلك؟؟



جاهل وحكماء

كان ذلك المدرس يعلم ما لم نكن نعلم، كان العقاب الفردي يتعبه ويوتره، أما العقاب الجماعي فهي المهمة الأسهل، فوقتها كان وقت راحة بالنسبة له، يجلس على كرسيه باسترخاء، ويأمر المذنبين بالوقوف على شكل دائرة مكتملة، على أن يمسك كل منهم بيده أذن مجاوره في هذا الجانب، وبيده الأخرى أذن مجاوره على الجانب الآخر، وهكذا يفعل الجميع، حتى ترى الحلقة متشابكة متماسكة بالأيدي والآذان، وفي لحظة الصفر يصيح (هيااااااااااا)، عندها يبدأ أحدهم بشد أذني مجاوريه، وبدورهما يشدان ما بين أيديهم من الآذان، وهكذا حتى تكتمل الحلقة بسرعة البرق كاكتمال الدائرة الكهربائية، وكمجرب أقول أنك ستبدأ حتما بالشد لا شعورياً بمجرد أن تُشد أذنيك، وكلما زاد ألمك ستزيد من الشد على ما في قبضتيك من آذان، حتى عندما يطلق المعلم صافرة النهاية فإن الشد لن ينتهي بسهولة، فلقد سكنت في الأنفس روح الانتقام، وهنا يستمر الشد حتى يقوم المعلم ويفض الاشتباك، فيرجع كل إلى مقعده يصيح ألماً من أذنين كالجمرتين لوناً وحرارة.



بعدها كنا نجتمع ونستذكر ما حصل، فنبدأ بالعتاب، وكلٌ منا يقول ذات العبارة (كنت أحس بالألم فتثور في نفسي روح الانتقام فأشد)، ونطرح على أنفسنا ذات السؤال، ماذا لو اتفقنا ولم نشد؟؟ إذن لما تألمنا، ولو لم تُشد أذني لما اضطررت لشد أذن جاري، فنتفق ونتعاهد لمرات لاحقة.

ولكن وعند أول تجربة كانت تسقط المعاهدات، وتُنقض الاتفاقات دون أن نعرف السبب، ونعود للعتاب من جديد.

لكن أظن أن معلمنا كان يعلم ما لم نكن نعلمه، وكان مدركاً أنه لو كنا عشرة، وإن كنا على أي قدرٍ من الحكمة، فلا بد من وجود جاهل بيننا - ذلك على أقل تقدير — وهو من سيبدأ بالشد ويُشعل الفتيل، ويكفي ذلك لإبطال حكمة التسعة الباقين.

اليوم وأنا أستذكر طريقة العقاب تلك، ابتسمت، وعاد إلى ذاكرتي مثل شعبي من الأمثال الكثيرة المسببة للإحباط، لكنه للأسف صحيح.



مَـحْل

ساد المَحْلُ وعم الجفاف، وحلت بنا سنين عجاف، أما هو فقال منفجراً بالضحكات:

ومالي أنا والمَحل؟ لا زرع لي ولا حقل، تجارتي بخير، وبضاعتي لن يُنقصها نقص الماء.

بعد حين جاء يسألني:

ما بال تجارتي كسدت؟ ولم البضائع فسدت؟

قلت: طالك المَحْل مثلنا، وزحف الجفاف إلى بضائعك، فحل بك البلاء.

قام كالممسوس متخبطاً، وعاد متأبطاً صلويته، خلع الحذاء!!!! قلب الرداء!!!! ونوى صلاة الاستسقاء.



قُبَّرَة

قبرة نزلت من السماء وحطت إلى جانب بيضة ملقاة في البرية، أشفقت على حالها، ولعنت هكذا أمهات، جمعت قشاً وبنت عشاً، رقدت فيه فوق البيضة.

فقست بعد أسابيع، خرج الطائر، كبر الطائر، وما عادت تشبعه ديدان تجلبها أمه القبرة، طلب المزيد فأحضرت، ولم يشبع، ثم طلب المزيد فأحضرت، ولم يشبع، ثم طلب المزيد، فأحضرت، ولم يشبع، إلا حين نعق للمرة الأولى، واختفت القبرة.



سُبْحة جدي

سبحة كانت دوماً بيد جدي، انقطع خيطها يوماً فتدافعت حباتها هرباً من القيد، انطلقت الحبات صوب الحافة بفرح، تسقط حبة تتبعها أخرى ثم أخرى.

حبة منهن وقفت على حافة الخيط وتشبثت به ترفض الخروج، صاحت بها من هي خلفها تنتظر السقوط:

- ما بكِ أيتها البليدة؟ هيا اخرجي ليتاح لنا الخروج قبل أن يُشد وثاقنا من جديد.

- لا، لن أسقط، ولن أسمح لكن، فهل عرفتن مصير سابقاتنا حتى تتدافعن للحاق بهن؟

- متآمرة،

- جبانة،

- مدسوسة،

- أم تراكِ اعتدتِ القيود؟



كلمات خرجت غاضبة من الحبات المصطفات للخروج، فصاحت بهن وما زالت متشبثةً برأس الخيط المقطوع:

- ما كل قيد يعني العبودية، وليس كل انطلاقٍ يؤدي إلى الحرية.

لم يكترثن بكلامها ونـدائها، فاستجمعن قوتهن وأعملن بها رفساً وركلاً، حتى تحطمت وتناثرت أشلاءً في كل الاتجاهات، وعدن يتحررن من الخيط واحدة تلو الأخرى.

ماتت متآمرة، بليدة، جبانة، عنيدة، أوصاف تداولتها الحبات المتحررات، أما جدي فقال: ماتت شهيدة.



خذلان

نال منه الزمن فأصابه الوهن، خذلته ساقاه وما عادت تحمله، فأعانهما بالعصا، تطوح، ترنح، حاول التشبث بأي شيء، فخذلته كل الأشياء، كما خذلته العصا، هوى نحو الأرض، لا حول له ولا قوة، وقبل أن يرتطم تلقفته أيادي امرأة حانية.

نظر في عينيها، وتحسس آثار ضربات من تلك العصا، أبقاها الزمن على أطرافها، أمسكت يده وابتسمت بطيبة، فبكى بحرقة.



طُموح

شـجرة وارفـة الظـلال عظيمـة الأغصـان مخضـرة الأوراق كانت على مشارف قريتنا ،

اسـتظل الفلاحـون بظلالهـا ، وقصـدها العشـاق مـلاذاً لأشواقهم، واتخـذت العصـافير مـن أغصـانها أوطانـاً ، وكـم تغنـى الشعراء بحسنها ودلالها.

اختالت وتعالت وقالت:

لـيس هـذا مـا أصـبو إليـه، مـا خلقـت لأكـون هنـا ، ولـيس هـذا مكـاني، آه ثـم آه لـو أسـكن المدينـة ، سـأدعو اللّه، عسـى أن تتحقـق الأمـاني، ابتهلـت، تضـرعت، دعـت، حتـى اسـتجاب اللّه الدعاء، فغُرست في شارعٍ وسط المدينة ، تحمل مصباحاً وأسـلاك كهرباء.



حقد مشروع

- انظر، انظر، أليس هو؟ قالتها بصوتٍ خافتٍ وقد تملكها الخوف.

- نعم، هو، قالها بثقةٍ وتأكيد.

- قلت لَكَ إنه يراقبنا، يا ويلي، لا بد وأنه يعرفنا، انظر كيف يحملق بنا بغضب، أحس أن الشرر يتطاير من عينيه، ألم أقل لَك؟ ليست هذه المرة الأولى، بل إنه يأتي كلما جلسنا هنا، لكن نظراته وملامحه هذه المرة تُحَدث عن أمرٍ يضمره في نفسه، أنا خائفة جداً، أرجوك، لا أريد أن أبقى هنا، فلربما انكشف أمرنا، وقد يقتلني، أو قد يقتلنا.

انتظريني هنا، قالها واتجه صوب ذلك الشاب الصغير، والذي يحمل ملامح غريبة توحي بكل المتناقضات من الصفات، الحقد والطيبة، الغلظة والوداعة، الهدوء والعصبية، الشراسة والاستكانة.

- قل لي من أنت؟ صاح به وقد أمسكه من كتفه بقوة.



لماذا أنت صامت لا تتكلم؟ هل أنت أبكم؟ ولم تنظر إلي بهذه العيون الحاقدة؟ هل تعرفني؟ أم هل تعرفها؟ أم هل نحن نعرفك؟ من أرسلك في أثرنا؟ قلت لك تكلم، أبن من أنت يا هذا؟ ابن من؟؟؟؟؟؟؟

بغضبٍ وقوةٍ بادية، أمسك الشاب الصغير يد محدثه، وأنزلها عن كتفه بعنف، رمقه وإياها بنظراته الغاضبة، ودون أن ينبس بكلمة، استدار وسار مع الطريق الموصلة إلى الملجأ القريب.



ظلام وأحلام

ظلامٌ دامسٌ يلف المكان، أمواجٌ من العتم البهيم تتلاطم في كل اتجاه، غيومٌ سوداء يبتلعها فضاءٌ أسود، نجوم مطفأة تتعلق بسماءٍ داكنة.

أفاق من نومه مفزوعاً، رفع رأسه عن وسادته، وقال محدثاً نفسه:

تباً لهكذا حُلمٍ يتكرر منذ صباي، سئمته وسئمت النوم لأجله، واللعنة على هكذا مفسرين سُذج، يُجمعون على تفسيرٍ ساذجٍ لا يقنعني.

سكن برهة، فجاء صياح الديكة معلناً بزوغ فجرٍ جديد، مد يده المرتعشة وتناول إبريق الفخار القريب، وسكب كل ما فيه من الماء في جوفه، ثم نهض من فراشه متثاقلاً، تناول ثوبه المعلق على مسمارٍ يبرز من الحائط، وارتداه دون عناية، وضع نظارته السوداء القديمة على عينيه، فتح الباب على غير هدى، وسار يتحسس الطريق بعصاه متجهاً إلى مفسر أحلامٍ آخر.



الفاتحة

- ألف مبروك،،

- اسمعونا الفاتحة،،،،

ثم سادت لحظات صمت، انتهت بمسح الوجوه بالأكف، لتنطلق بعدها الزغاريد وعبارات التهاني والمباركة، ولتتناثر حبات الحلوى في الهواء، الكل قرأ الفاتحة دون استثناء، هي أيضاً قرأت الفاتحة معهم، قرأتها على روحها، وتركت لهم جسدها يتفقون على مراسم تشييعه إلى مثواه الأخير.



صلاح الدين

أمضى عقوداً في القعود، ينتظر عودة صلاح الدين، ذات فجرٍ سمع صوتاً يصيح به، ولم يدرك ماهيته أو مصدره:

من كان ينتظر صلاح الدين، فإن صلاح الدين قد مات، القدس باقية، والفرنجة لا زالوا هناك، فمن أراد أن يكون صلاح الدين، فليفق أولاً من السبات.

حركَ الصوت حميته، فقام من القعود بعد عقود، ومع أول خيوط الضياء كان يقف هناك أمام مكاتب السلطات، يحمل طلب تغيير اسمه في بطاقة الهوية.



شمس

سَرقَت كل الألوان وارتحلَت، وما تركت سوى الأسود الذي طغى وتجبر وفرض نفسه على كل ما هو حولي، نَظَرتُ إلى السماء أسألها، فتجهم ذلك الأسود وصاح في وجهي:

- ماذا تريد؟؟

- قلت بخوفٍ شديد: أريد شمسي.

قال: أخبرتني أنها ستخلد للنوم خلف ذلك الجبل، وبعد حين تعود.

لم أصدقه، فقلت لنفسي:

- ربما لم تنم كما قال هذا، بل ربما ذهبت لتمنح الدفء والضياء لغيري، ولن تعود.

قصدت الجبل أطالعها خلفه، فإن وجدتها نائمة فلن أزعجها، وإن لم أجدها صدقت ظني.



وصلت قمة الجبل وقد أعياني التعب ونال مني، فلم أجد وراء الجبل سوى ذلك الأسود يرمقني بنظراته المخيفة، أغمضت عيني خوفاً منه وحزناً على فقيدتي، وغبت مع نومٍ عميق.

بعد وقت لا أعرف طوله، أفقت على صوت الحياة يدب في المكان، نظرت إلى الأعلى فوجدتها فوقي، تمنحني دفئها وحنانها، وتعيد إلى الأشياء ألوانها.

سألتها: أين كنتِ؟؟ فابتسمت ولم تجبني.



اللوحة الأخيرة

فتشوا غرفته فلم يجدوا غير الفرشاة والألوان، وبضع لوحات زيتية أثارت حفيظتهم.

تم ضبط الموجودات وتوثيقها في محضر، ذلك حسب المادة رقم (1) من القانون ذي المادة الواحدة.

بضعة شهور في زنزانته المظلمة، كانت كافية لإخفاء معالم وجهه وراء لحية كثة تشابكت مع شعر رأسه.

في ذلك اليوم الذي أحس بانبلاج صُبحه دون أن يرى الضياء، أفاق وقد اشتعلت نيران الموهبة في عروقه، أحس برغبة شديدة لرسم لوحة جديدة، تحسس أرضية المكان بحثاً عن أي أداة تصلح للرسم، وبينما هو دائب البحث اخترق صرير الباب الحديدي أذنيه، وانبعثت منه هالة من الضوء.

قام من مكانه يستطلع الأمر بأنصاف عيون، نظر إلى مكان انبعاث الضوء، فابتسم بنشوة، حملق في وجه سجانه الممتلئ المستدير، ثم نظر إلى أظافره التي زاد طولها حتى صارت



مسـنونة معكوفـة، فـزادت نشـوته واتسـعت ابتسـامته وتأججـت نيران موهبته، وما هـي ألا لحظات حتى كان قـد انتهـى مـن رسـم لوحته الأخيرة.



وِحْدَة

أتعبه الأرق الذي رسم هالاته السود حول الجفون، افتقد الحنان فتجمدت الدماء في عروقه، ثقل لسانه من قلة الكلام، أحس بنصفه المفقود يبتلع نصفه الباقي، لسعه البرد متحدياً قيظ تموز، تذكّر المودة، وتذكر الرحمة، أغمض عينيه واندس تحت لحافه بتثاقل، رسم تحت اللحاف صورة امرأة، احتضنها بشوقٍ وغط في نومٍ عميقٍ.

في الصباح حملوه إلى هناك ليجاوره‍ا إلى الأبد.



مـروءة

رآها تعود إلى الحي في ساعة متأخرة من الليل، ,

ودون أن يستوضح الأمر !!!!

خرج أبو جهل من الحانة القريبة،

يسأل فقهاء القوم عن حد الزنا.



فروسية

لطالما ضرب رقاب العباد بسيف سيده، ممتطياً صهوة بطشه.

غضب منه سيده في يوم، فركله في ظهره ركلة أوقعته على وجهه، حتى انغرست جبهته في وحلٍ لزج.

ولا زال حتى اليوم هناك، منكباً على وجهه، ينتظر إذن سيده بالنهوض.



استجارة

فراشة وجدت نفسها حبيسة غرفة غريبة الشكل، تنقلت بين الجدران باحثة عن الملاذ فلم تجده، استجارت بمصباح معلق في إحدى الزوايا تنشد الدفء والضياء، فلسع المصباح جناحيها، نجت من الموت بأعجوبة وعادت تحوم حتى أعياها التعب، لاح لها على الزاوية الأخرى بيت جميل الشكل، مطرز بخيوط حريرية ناعمة بيضاء تنتظم بشكل هندسي يجذب الأنظار.

هرعت إليه بلهفة تستجير به من برد الجدران وحرارة المصباح، فشدّت سيدةُ القصر خيوطها استعداداً لاستقبالها.



طرب

استعذبوا تغريد الحمار !!!

فأمروا البلبل أن يَكُفَّ عن النهيق.



علبة سردين

بسعادة غامرة كان يمسك (ريموت كونترول) بيديه الصغيرتين ويجلس القرفصاء، يميل ذات اليمين وذات الشمال مع ميلان سيارته الصغيرة التي يتحكم بها بمهارة لفتت انتباهي.

جلست إلى جواره أرقب الأمر باهتمام وإعجاب، وقد تعلق نظر كلٍ منا بالسيارة البهلوانية المسرعة، حتى ما عاد أحدنا يحس بوجود الآخر.

عدت من شرودي على صوته يقول لي:

- أبي، هل تجربها؟

ابتسمت وقلت:

- ربما لا أستطيع التحكم بها، أكمل القيادة وها أنا أركب إلى جانبك.



اعتدل في جلسته وأحكم قبضته على المقود (الريموت)، وتقمص دور السائق ببراعة، ركز بصره بمسار سيارته وأعادها إلى الحركة من جديد، وقال دون أن يلتفت نحوي:

- هل كنت تمتلك واحدة عندما كنت في مثل عمري؟

- نعم، كانت لدي واحدة.

- هل كانت تسير بالريموت كنترول؟

- نعم، أقصد تقريباً، كنت أربطها بخيط يقوم مقام (ريموتك) هذا.

أعادني الصبي بلعبته وحديثه إلى طفولتي وإلى ألعابي، فعدت إلى هناك، وتذكرت سيارتي التي صنعها لي أخي ذات مرة من علبة سردين فارغة، حيث أحدث فيها أربعة ثقوب، وأدخل مسماراً في الثقبين الأماميين، ومثله في الثقبين الخلفيين، وعلى حواف المسمارين وضع أربعة أغطية دائرية لعلب مشروبات غازية، شكلت عند تثبيتها إطارات المركبة، وربطها بخيطٍ للجر، تذكرت كم كنت سعيداً وأنا أجر مركبتي في شارعنا، أنقل فيها الرمل والتراب، يرمقني بعض أترابي بنظرات



الغيرة والحسد، وينتظرني البعض كي أعطيهم الخيط (الريموت) ليتمتعوا بقيادتها ولو لمسافة قصيرة.

عدت من الماضي بمكانه وزمانه، لأجده يقول:

- أبي، ليست صعبة، اسمع مني وجربها، أمسك بالريموت، وأنا سأرشدك.

تحرك بداخلي ذاك الطفل الذي يسكنني، وأحببت أن أخوض غمار تلك التجربة المتعة، أحسست برغبة جامحة لأكون طفلاً، فإن كنت أجد المتعة في علبة سردين أسحبها، فكيف ستكون متعتي مع هذه الآلة العجيبة؟

أمسكت الريموت بفرحة تفتقر إلى الثقة، يسكنني الخوف أن أظهر أمامه عاجزاً عن فعل شيءٍ يتقنه هو بمهارة عالية، وقبل أن أضغط زر الانطلاق وضعت الريموت من يدي، وقلت له:

- هل أنت جائع؟

أجاب باستغراب: نعم، ولم السؤال؟



حينها استعدت ثقتي وقلت بسعادة: اذهب إلى أمك وقل لها أن تفتح لك علبة سردين، وبعد أن تنتهي من الأكل اغسل العلبة الفارغة واحضرها إلي بسرعة.



جذور

تدحرج برميل من أعلى الجبل، فأحدث جلبةً أفزعت الجميع، تسارع تدحرجه، وازداد اندفاعه، وعلت أصواته، سحق الأعشاب، ودق الرقاب، وتطايرت من حوله الطيور هاربة مفزوعة.

ظن الجميع أن لا شيء قادر على وقف اندفاع هذا الهائج العنيد، وفجأة .. توقف البرميل عاجزاً عن الحركة، مكتوماً صوته، ذلك حين اصطدم بصخرة صغيرة، ترتفع فوق الأرض قليلاً، وتمتد في باطن الأرض كثيراً.



غياب

تركها عروساً ولا زالت آثار الحناء تصبغ كفيها بلونٍ برتقالي باهت، أودع في بطنها جنيناً، ثم غاب يلاحق أخرى.

تركها في ذلك البيت النائي على أطراف القرية، وحيدة تصارع مشاق الحياة دون معين، وتقاسي آلام المخاض، دون نخلة تهز جذعها.

غاب وانقطعت أخباره سنين طويلة فكأنما ابتلعه المجهول، اليوم، وبعد خمس عشرة سنة، وبعد أن تقطعت به السبل، عاد يشده الحنين إلى بيته وزوجه وابنه.

وقف في أول الطريق الترابي الموصل إلي بيته، فرآها تجلس هناك تحت شجرة العنب التي اعتادت أن تجلس في ظلها، أمعن النظر واقترب، فسرت في أوصاله نشوة هزت أركانه وقلبت كيانه، وقال يحدث نفسه:



يا لهذا النبل ويا لهذا الوفاء, إنهما يجلسان هناك بانتظاري, ها هي تحدثه, وأظنها تحدثه عني، هيا التفتا صوبي، فإني أتصبب شوقاً.

وقف في مكانه ينتظر أن تلمحه، انتظر وطال انتظاره، ولا زال يقف في مكانه دون حراك، أما هي فكانت تجلس هناك تُرضعُ صغيرها، وتمسح على رأسه وتناغيه بحنان، ولا تنظر صوب الطريق التي ما عادت ترقبها.



مَشهدان من الوطن

المشهد الأول:

بعد وفاته فتحوا وصيته، فكانت من بندين:

البند الأول: دعوة للمحافظة على أمواله ومشاريعه وعقاراته في الخارج، وعدم نقل أيٍ منها إلى داخل الوطن.

البند الثاني: نقل جثمانه على جناح السرعة، ليُدفن في أرض الوطن!؟!؟

المشهد الثاني:

وَقّع معهم عقد البيع، وانتقلت لهم ملكية أرضه مقابل حفنة من الدولارات.

قال بفخر: أغبياء، كل تلك الدولارات مقابل حفناتٍ من التراب آلت إلي إرثاً دون ثمن؟؟؟؟؟



على الجانب الآخر، كان أخوه يدفع روحه فداءَ حفنـاتٍ من التراب.



استجمام

كان عامل البوابة مشغولاً ولم يلاحظ دخولي، مكانٌ هادئ جميل، حيث الأشجار يداعب أوراقَها نسيمُ البحر العليل. مكانٌ يصلح فعلاً للاستجمام بضع ساعات، لكني لا أرى أحداً، ولا أسمع صوتاً، فهل أنا وحدي هنا؟

ذلك أفضل، سأفعل ما يحلو لي، وها هو عامل البوابة ما زال منشغلاً عني.

نظرت حولي فتأكدت من خلو المكان. حينها خلعت قميصي وبنطالي وعلقتهما على غصن شجرة، وسرت بملابسي الداخلية فقط، وما هي إلا لحظات حتى بدأت أخجل من نفسي فلقد أحسست بأنني عارٍ تماماً، وما منعني من العودة لارتداء ملابسي إلا خلو المكان، فتابعت المسير على استحياء، وسرت مع الطريق وقتاً طويلاً مستمتعاً بالهواء الطلق والمناظر الخلابة، حتى نسيت خجلي.



فجأة توقفت حين خيل إلي أنني أسمع ضحكات قريبة، فصبغ الحياء وجهي من جديد، وعدت أنظر إلى نفسي، وقد عجزت عن إدارة بصري لأبحث عن الضاحك، فلا بد أن أعود قبل أن تلتقي عينه بعيني، فلربما أنه يراني.

وما أن استدرت لأعود حتى انطلقت ضحكات أخرى من أماكن أخرى، حتى ما عدت أميز من أي جهة تأتي، ركزت بصري على موطئ قدمي وسرت عائداً أحاول ستر جسدي بكفّي، ودون أن أنظر حولي.

الضحكات تتعالى، وصرت أسمعها بوضوح تخرج من هنا ومن هناك، عن يميني، وعن شمالي، من فوقي، ومن تحتي، تختلط مع عبارات سخرية واستخفاف:

- انظروا إليه، انظروا !!!!
- إنه يرتدي ملابس داخلية.
- يا لمنظره الغريب.
- ما أجمله من طقم قطني فاخر.



- هل هو للبيع؟؟

- ما أجملك بهذا الأبيض يا هذا.

- امسكه جيدا كي لا يسقط، امسك.

كل هذا أسمعه وأنا أمشي عائداً مرتعداً خَجِلاً، ودون أن أنظر حولي، وما أن بدأت أصواتهم وضحكاتهم تبتعد عن مسمعي قليلاً حتى أطلقت لقدمّي العنان، أجري وأحدث نفسي:

- تباً لي، ما الذي فعلته بنفسك أيها الأحمق؟ من أين جاءوا؟ ظهروا حولي فجأة، وربما كان أحدهم أو بعضهم يعرفني، فماذا سيقولون عني؟ سأرتدي ملابسي ثم أعود خلسةً لأستطلع الأمر، ولأعرف أصداء فعلتي النكراء.

أخيراً تلاشت الأصوات والضحكات، وصلت الشجرة منهكاً لا أقوى على سحب أنفاسي، أسندت رأسي إلى الشجرة ونظرت إلى ملابسي الداخلية التي بللها العرق وما عادت تستر شيئاً، مددت يدي لأتناول ملابس عن الشجرة، فإذا بصوتٍ يصيح بي:



- يا هذا ، أين كنت؟ وكيف دخلت؟

- دخلت من أمامك وقد كنت منشغلاً.

- وكيف دخلت بملابسك الفاضحة هذه؟

- أعتذر، اغفر لي أرجوك، أعترف بذنبي، وها أنا سأرتدي ملابسي لأدخل ثانية كما يليق بي وبهذا المكان.

- ترتدي؟؟ تدخل؟؟ ماذا سترتدي؟ وإلى أين ستدخل؟ هل أنت أحمق؟ إن كنت ستعاود الدخول فعليك أن تخلع عنك تلك الملابس الفاضحة، فأنت على شط عراة محترم يا هذا.



عِطرها

مرّت من أمامه مسرعة، وفي طرفة عين اختفت بجسدها مخلّفة طيفها ورائحة عطرها الفواح الذي سرى في كل أوصاله فترك في جسده شيئاً من الخدر اللذيذ، حبس شهيقه داخل صدره ورفع رأسه وأغمض عينيه منتشياً.

وقبل أن يفوق تماماً، لمحها تأتي مرة أخرى، تتبختر بقدها الممشوق وطولها الفارع، تتمايل في مشيتها، ويتمايل معها شعرها الذي بدا كليلة صيف صافية أحاطت بالبدر ليلة اكتماله.

لم تكن مسرعة هذه المرة، فأمعن النظر بتركيز حتى تأكد أن ما رآه قبل قليلٍ لم يكن حلماً ولم يكن وهماً.

اعتدل في وقفته، وحاول أن يبدو واثقاً متماسكاً فنفخ صدره وعقد حاجبيه، وصار ينظرها بعينين محدقتين تمتلئان بأحاسيس شتى، يعرف بعضها ولا يعرف أكثرها، حتى إذا اقتربت منه أرفق النظرات بابتسامة غير مصطنعة، ارتسمت على



وجهه بعفوية، وما أن وصلت أمامه حتى التقت نظراتهما، ولم تشح بوجهها عنه، رغم أن وجنتيها قد توردتا، وسرعان ما قابلت ابتسامته بمثلها.

أحس بالكلمات تتزاحم فوق لسانه بشكلٍ يعيق خروجها، حاول ترتيب الكلمات، علّه يستطيع قول أي كلمة توقفها ولو للحظة، وقبل أن ينجح كانت قد سارت إلى وجهتها وكادت تختفي عن ناظريه.

دون أن يدري لملم نفسه التي تبعثرت شوقاً ولهفة وسار خلفها دون تفكيرٍ أو تخطيط، تبعها ورائحة العطر تسكن صدره، ونور وجهها يضيء طريقه، يزداد تأججه وتتسارع دقات قلبه كلما استدارت ونظرت إليه لتبتسم بدلال.

سار خلفها حتى جلست على مقعد وجدته أمامها، استقرت فوق المقعد بهدوء، مدت أصابعها وداعبت خصلات شعرها قليلاً ثم أعادت ترتيبه، ثم حاولت أن تبدو منشغلة بمبردٍ تداعب به أظافرها، كل هذا ولا زال يقف أمامها، يحدق بها مبتسماً، ولا زالت ترمقه بين الفينة والفينة بنظرة ساحرة مصحوبة بابتسامة جذابة.



جلس إلى جوارها بصمت، وكأن لغة الكلام ما عادت تجدي، اقترب منها قليلاً فلم تبتعد، ثم عاد واقترب فلم تمانع، ثم اقترب أكثر، فاقتربت بدورها حتى ما عاد يفصلهما أي فراغ.

تلاقت نظراتهما بصمت، تشابكت أيديهما بقوة، تسارعت الأنفاس وتناغمت دقات القلوب، حلقا معاً خارج المكان والزمان.

وفجأة ودون مقدمات اخترق صوتٌ حاد عالَمهما، فأعادهما إلى مكانهما وزمانهما، التفتا سوياً ليصلهما الصوت أكثر وضوحاً، إنه صوت بكاءٍ في الغرفة المجاورة.

حينها علت ضحكاتهما فجلجلت المكان، وقاما على عجل، واتجها سويا نحو سرير صغيرهما في الغرفة المجاورة.



القادمون

ويتكرر المشهد، ذات المشهد، وبكل التفاصيل، تدخل الصالة وتجلس حيث تجلس في كل مرة، تصطنع ضبط النفس، تضع حقيبة يدها في حجرها، وتتشابك أصابعها المرتعشة فوق الحقيبة، تهز رجلها لا إرادياً بتوتر، بينما بصرها يتعلق في باب واسعٍ كُتب فوقه عبارة (القادمون).

بقيت جالسة في مكانها تحدق في الوجوه بعينين اختلط فيهما الأمل باليأس، بينما قام المنتظرون من أماكن جلوسهم فجأة، ذلك حين فُتح الباب وبدأ دخول القادمين أفواجاً أفواجاً.

الكل يلوح بيديه والكل ينادي، كل قادمٍ يُلوح لمنتظرٍ، وكل منتظرٍ ينادي على قادم، حتى التقى الجمعان، عناق هنا، وعبرات هناك، أحاديث اشتياقٍ في ذلك الركن يختلط بالضحكات، يقابله ركنٌ يسوده صمتٌ يترك الحديث للمناجاة بلغة العيون، أيادٍ متشابكة يغادر أصحابها الصالة، وأكتاف متلاصقة تتجه صوب باب الخروج.



الكل غادر الصالة، حتى أطبق الصمت على المكان وعم الهدوء، ولازالت تجلس في مكانها، تشخص ببصرها صوب ذلك الباب الذي أُغلق فصار قطعةً من الجدار.

كانت تلك المرة آخر المرات التي تصدق فيها وعداً يأخذها إلى هناك، وما عادت تزور المطار، فقد دشنت في قلبها مطاراً آخر، يتألف من حجرة واحدة، كتبت فوق بابها (المغادرون).



أفعى

حـام حولهـا مبهـوراً بجلـدها نـاعم الملمـس مـزركش الألوان، قال:

سأنقض عليها من تلك الناحية، لا .. بل من الناحية الأخرى، ذلك أسلم .. سأمسكها من رأسها .. أو ربما أمسك ذيلها ومن ثم أسحق رأسها .. وبعناية .. سأقوم بسلخ جلدها، لأصنع منه حزاماً ألفه على وسطي .. يا لجماله، سيكون حزاماً رائعاً زاهي الألوان.

أما هي فظلت ساكنة ترقبه، حتى اقترب وبانت نواياه، حينها وقبل أن يرتد إليه طرفه، كانت قد حققت له مبتغاه، وكفته تعب النزال.



نار وجلنار

النيران تطوقني من كل الاتجاهات، تلفح وجهي، تلسع أطرافي، تملأ أنفاسي بدخانها الأسود الخانق، أقف وحيداً في حلقتها المقفلة، أقتل اليأس بأنفاسي التي ما زالت قادرة على استنشاق بعض الهواء، أحاول انتزاع الأمل من الألم، أعمل على إطفاء الحريق بيديّ المحترقتين، وأعمل على شق حلقة النيران بقدميّ المتفحمتين.

لا أفكر كثيراً بزخة مطر تطفئ الجمر، ففصل الشتاء بعيدٌ بعيد، ولا زال حر تموز يُلهب اللهيب.

أسمع صوتاً يناديني، ليس من مكانٍ قريبٍ جداً، لكنه ليس ببعيد، مصدره بركة ماء تحف جنباتها أشجار الرمان التي أزهرت من جديد، رجلٌ يسبح على صفحة الماء مستمتعاً ببرودته، ومستظلاً بظلال الشجر يقول:

ويحك أيها الجبان، ألا تستطيع إخماد تلك النار قبل أن يحترق الجلنار؟؟؟؟



بلا حدود

وجد نفسه يتنقل بين أقطار وطنه العربي الكبير من محيطه إلى خليجه، يعبُر من بلدٍ إلى آخر بأريحية لا يخالطها تعب، وبحرية مطلقة !!! دون حدود، دون تأشيرات دخول أو خروج، دون أوراق استقدام، دون غرفٍ للتفتيش وأخرى للتحقيق، دون كفلاء أو كفالات، دون منغصات ودون معيقات.

ابتسم بنشوة وواصل الترحال، دخل كل البلاد وخرج من كل البلاد.

توقف فجأة حين أحس ببعض التعب، ولَمّا أمعن النظر جفت ابتسامته، تلاشت فرحته، انطفأ بريق عينيه، صاح بغضب، ضرب الطاولة بقبضة يده، ومزق الخريطة.



سيجارة مشتعلة

سئمت نصائحها بأن أقلع عن التدخين، تلك النصائح التي طالما تحولت إلى شجارات ومشاحنات، قلما تنتهي بهدوءٍ وسلام، وغالباً ما تكون نهايتها معركة حامية الوطيس.

في المرة الأخيرة، قررت أن أخوض حرباً سياسية تكتيكية على الرغم من (تفوقي العسكري) إن جاز لي التعبير، فلجأت إلى الحوار:

- هل سبق لي أن أخبرتكِ قصتي مع التدخين؟

- لا، لم تخبرني، ولا يهمني أن أعرف.

- إذن فإن معرفة القصة لن تضرّك بشيء، هذا على الأقل، أليس كذلك؟

- لا أدري، ربما،.

- استمعي إذن: أشعلت أولى سجائري عندما كنت في الصف الحادي عشر، أخذتها خلسة من علبة أبي، وأخفيتها في جيبي مع



علبة ثقاب رطبة وجدتها في سلة المهملات فاستصلحتها، ووقفت هناك أنتظر الجميلة التي كانت تمر يومياً من تلك الطريق وفي نفس الموعد.

كنت حينها على قناعة تامة أن سيجارة مشتعلة في فمي أو بين أصابعي قد تجعلها تُحس برجولتي، وسأنال إعجابها، فمنذ طفولتي أحسست أن السيجارة مرتبطة بالرجولة ولا انفصال بينهما، كبرت ودخلت مراهقتي وكدت أخرج منها ولا زالت تلك القناعة تتغرس في نفسي، فلقد سكنتني لسببين:

أولهما: أبي الذي كان يفخر بأنه صار رجلاً قبل أن يبلغ الحلم، حين غادر القرية متجهاً إلى حيفا ليعمل في مصنع سجائر، وكم كنت أشاركه الفخر وهو يحدثنا عن تلك الأيام، وكيف كان ينتعل سباطاً مرتفع النعل ليظهر أكثر طولاً، وليطال الشريط الذي يحمل السجائر ليتمكن من العمل دون تعب، وكم كنت أنسجم بالحديث عندما كان يحدثنا عن اقتحام عصابات (الهاجاناه) لمصنعهم في عام 1948 وطردهم منه، وكيف قاومهم عمال المصنع وحراسه بما استطاعوا، حتى سقط المصنع مع سقوط حيفا.



وثانيهما: كَفُ أبي الصلبة الخشنة والتي ما كانت تخلو من سيجارة تطل من بين أصابعه، حتى أن أظافره قد صُبغت بلون دخانها المُصْفَرِ، كنت أدقق في يده الكبيرة القوية ذات العروق البارزة، فأحس أن الرجولة كل الرجولة تكمن في تلك اليد، ولا تكتمل إلا بعمود الدخان المتأرجح الصاعد من سيجارته.

تلك الأسباب جعلتني أربط الرجولة بالتدخين، حتى كدت أعتبر أن الرجولة لا تكتمل إلا بالسجائر، ومن ذات القناعة بت أمقت المرأة المدخنة وأشمئز منها، وأعتبر أن التدخين يقتل أنوثتها ويجعلها رجلاً ناعم الصوت يرتدي ملابس نسائية، فلا هي صارت رجلاً ولا ظلت امرأة.

ونعود إلى تلك الجميلة التي كنت بانتظارها، حيث أيقنت أن سيجارة أشعلها وقت مرورها ستكسر الجمود وتغير مجرى الأمور، وحدث ما كنت أتوقعه فعلاً، مرت الجميلة فأشعلت سيجارتي وأخذتُ منها نفساً عميقاً، وكتمت أنفاسي كي لا تُخرج معها السعال الذي امتلأ به صدري، وما أن صارت بمحاذاتي حتى غلبني الهواء المنحبس، فخرج رغماً عني مختلطاً بسعالٍ حادٍ قوي، جعل الجميلة تتوقف أمامي وقد ركزت



بصرها نحوي، تماسكتُ، مسحتُ دموعي وأشياء أخرى بطرف كمي، واستجمعت قواي وسحبت نفساً آخر أعمق من سابقه، وقد نجحت في لجم السعال، لكن عيني جحظتا وصارتا كالجمرات، ابتسمتْ حينها وقالت: هل أنت بخير؟

قالتها وغادرت على عجل وكأنها ندمت، فلا هي انتظرت الإجابة، ولا أنا استطعت قولها، ورغم ذلك فقد طرتُ فرحاً، نظرت إلى السيجارة وقلت:

واللّه لقد أبليت بلاءً حسناً أيتها المليحة، فلقد نلت بسببك ما لم أنله منذ شهور، فلقد وقفت أمامي وابتسمت، بل وكلمتني.

بت تلك الليلة مع فرحي، وانتظرت الغد بلهفة كبيرة وسيجارة جديدة، لكن الأحداث اللاحقة خيبت ظنوني وابتلعت سعادتي، فلقد عادت تلك الجميلة لسابق عهدها، تمر دون أن تلتفت صوبي، رغم سيجارتي المشتعلة، ورغم قدرتي على التدخين ببراعة ودون سعال.



انتهت قصتي مع الجميلة، حين اختفت فجأة من طريقي ومن حياتي دون أن أعرف مكانها، وبقيت السيجارة ترافقني حتى صارت سجائر عديدة.

كبرت وبلغت مبلغ الرجال، وما عادت السيجارة ترتبط عندي بالرجولة، نسيت قصتي مع الجميلة وما عادت تهمني، إلا أن السيجارة لازمتني ورافقتني في حلي وترحالي، وما بقي لها أي معنى من معانيها القديمة، إلا أنني اعتدت على أمرٍ لا أعرف سببه ولا أجد له تبريراً، فلقد صرت أشعل سيجارتي عندما ألتقي أية جميلة، أشعلها دون تفكير، لا أبتغي جذب الانتباه، ولا أنشد اكتمال رجولتي، أشعلها دون أن أعرف السبب، وأحيانا لا أتنبه إلى الأمر ألا بعد مرور بعض الوقت، حين أبتسم وأقول: يبدو أن محدثتي كانت جميلة فعلاً، لذا أشعلت سيجارتي دون أن أدري.

وما زالت تلك العادة تلازمني إلى يومنا هذا، لدرجة أنني أكاد معرفة عدد الجميلات اللواتي قابلتهن في أي يومٍ من عدد السجائر المستهلكة، ولا أنكر أنني أفكر أحياناً في الإقلاع عن التدخين، لكنني أتراجع وأقول لنفسي: لقد اعتدت أن أطفئ



تأثير الجمال على نفسي بإشعال سيجارتي، فصرت لا أقوى على مواجهة الجمال إلا بالإشعال، فإن لم أجد سيجارة أشعلها أخاف أن يُشعل الجمالُ قلبي فأصبو إليه ضعيفاً منهار القوى، فأكون عرضة لمخاطر أكثر وأكبر، وتلك هي يا عزيزتي قصتي مع التدخين.

كانت تجلس أمامي تستمع إلي بإصغاء واهتمام شديدين، ومع أنني انتهيت من سرد القصة إلا أنها بقيت صامتة مشدوهة، انتظرتها أن تتكلم فلم تفعل، ولم تنبس بكلمة، حاولت قراءة ملامحها لأعرف وقع الحديث على نفسها، وهل اقتنعت ولن تطالبني بالإقلاع مرة أخرى؟؟

انتظرت وانتظرت دون فائدة، ولم أعرف نتائج جولتي الدبلوماسية السلمية، لكن ما أعلمه أنها في صباح اليوم التالي أعطتني قائمة بمستلزمات البيت كي أحضرها من السوق، وكان البند الأول في القائمة: علب سجائر تكفي حتى نهاية الشهر.



موقع

على جسدها ،,,, رسمت خارطة العالم ، وخرجت عارية مكشوفة تستعرض إنسانيتها وحرصها وعدلها ، الكل نظر إلى موقعه وحدد مكانه.

وكم كانت فرحة (أبو عرب) حين رأى وطنه في ذلك الموقع الاستراتيجي الذي يتوسط القارات !!!!



ظُلم

احتدم الخلاف بينهما ، علت أصواتهما ، تبادلا الشتائم وعبارات التهديد ، . ارتفعت العصي، تقدما ، فوقع الاشتباك، وقبل أن تظهر نتيجة النزال، وقبل أن يتخلص أحدهما من الآخر.

هلل المستضعفون، فرحوا ، تبادلوا عبارات التهاني، وبينما المعركة لا زالت في أوجها ، احتفلوا بزوال ظالمٍ واحدٍ ، ,, على الأقل.



علي بابا

فجأة ,,, ظهر (علي بابا) من جديد !!!

فاستبشرنا خيراً, لكنه سرعان ما انسحب من بيننا وغاب عنا.

ذلك حين وجد أن عدد اللصوص قد فاق الأربعين.



خنوع

طوال حياته ظل راكعاً يُقبل الأيادي, حتى وصل إلى مبتغاه.

أحس حينها أن الأوان قد آن لينحني له الناس, وليمد يده لتُلثم !!! حاول الوقوف منتصباً ,,, فلم يطاوعه عموده الفقري الذي اتخذ شكل القوس.



كهف

فـر مـن طغيـان الطـاغيـة, يرتعـد مـن جبروتـه, مبتعـداً عـن باعه الطويلة ، فأوى إلى كهف في الجوار !!!

وكم كانت دهشته حين رأى الكهف يكتظ بأجساد الهاربين, وكلهم يغطون في سباتٍ عميقٍ, وقد تفاوتت أطوال شعورهم, من القصير إلى الطويل إلى الوسط.

صاح فيهم : كم لبثتم ؟؟

فردد الكهف الصدى: كم لبثتم ؟؟

لم يسمع إجابة فغادر الكهف وعاد من حيث أتى, يرفع رأسه دون وجل, وقد عرف سر جبروت الطاغية.



زهايمر

قبيل الفجر، وتحت لسعات برد كانون، كان يمشي متأبطاً منجله، كما لو أنه في موسم الحصاد !! يدق لأرض بقدميه، كما لو أنه عاد إلى أيام الصبا.

ظل يشق العتم حتى لاحت له أضواء المستوطنة القريبة، حينها رفع منجله وحث الخطى، وراح يردد أهازيج الحصادين القديمة:

منجلي يا منجلاه **راح للصايغ جلاه**

ما جلاه إلا بدمي **ومن غلا دمي غلاه**



مسرح

أُسدل الستار، أُشعلت الأنوار، فُتحت أبواب الخروج، سكتت ضحكات كانت قبل قليل تملأ المكان، تجهمت وجوه كان يعلوها الفرح منذ لحظات.

فقد وصل العرض المسرحي إلى نهايته، وانتهت معه ساعتان من الضحك الجميل، الكل يتأهب للخروج من المسرح، وللدخول - من جديد - في دوامة الحياة بكل ما فيها من تعب، فهذا دوماً حال أوقات الفرح، تنتهي لتذكرنا بالوجه الآخر للحياة.

كل الوجوه تبدل حالها من الابتسام إلى العبوس، إلا هو، ذلك الجالس في أواخر الصفوف، وقف وتمطى، ابتسم بسعادة ونشوة، فلقد انتهت ساعات عمله، وما بقي إلا أن يُنظف المكان سريعاً، ويغلق الأبواب، ليخرج إلى الحياة من جديد.



النهايـة

كانت تبوح للورق بتفاصيل قصة حبها المنتهيـة ، وقبـل أن تكتب النهاية نفذ الحبر مـن قلمهـا, قامـت تبحـث عـن الـدواة فلـم تجدهـا.

عادت إلى الورقة فطوتها, ووضعتها في كتابها!!

واستذكرت إشادة النقاد بالنهايات المفتوحة.

إلى اللقاء في المجموعة القادمة